٢٠٥

HARLEQUIN

روايات احلام

ليلة واحدة لاتكفي

أيمَا دارسي

www.elromancia.com
مرمورية

ليلة واحدة لا تكفي

إلى من تلجأ كريستابل وابنتها؟ إلى عائلتها وبلدها حيث ينتظرها الأسر؟ إلى حبيبها جيرد المحكوم عليه بالموت إن اقترب منها؟ أم تختفي مجدداً إلى آخر العمر؟

كانت غلطتها أنها قَبِلَت دعوة جيرد إلى العَشاء في قصره... لقد طمعت في ذكرى جميلة تحملها معها، ولكن الغزاة الآن قادمون... فمن يحميها منهم؟ ومن سيدفع الثمن؟ حبيبها أم ابنتها؟

www.elromancia.com

أيمّا دارسي

كانت أيمّا دارسي ممثلة قبل أن تصبح زوجة وأمّاً. ولاحقاً أخذت تهتم بالرسم الزيتي، ولكنها اعترفت بأنها لم تفلح فيه... بعد ذلك جربت الهندسة المعمارية فوضعت تصميماً لمنزلها الواقع في «نيوساوث ويلز». ومؤخراً أصبحت كاتبة روايات رومانسية، وبحسب ما اعترفت: «أن كتابة الروايات العاطفية من أصعب الأعمال وأشدّها بعثاً للتحدي».

١ ـ الخطر القادم

رجل يرتدي بذلة!

ما من رجل في «بروم» يرتدي بذلة، ولا سيما عصر يوم الأحد.

انتاب «كريستابل» الحزن وهي تسبح في الماء الذي وصل إلى خصرها. وشعرت بحاجة إلى رؤية ذلك الرجل عن كثب وهو يجتاز المرج الممتد فوق الشاطئ، مرتدياً بذلة!

أتراه واحداً منهم؟ وهل اقتفوا أثرها؟

وقبل أن يتسنى لها أن تتفحص الرجل جيداً، قادته خطاه خلف المنتجعات السياحية. انتظرت وقلبها يخفق بسرعة إذ كانت تخشى أن يكونوا قد عثروا عليها بالرغم من كل ما اتخذته من احتياطات.

مضى على وجودها هنا ستة أشهر.. وهي مدة كافية لتشعر بالأمان.. إلا أنها تخطىء إن فعلت. إذ من الغباء أن تخال أنها بمأمن منهم، وقد ابتعدت عن كل ما يتعلق بهم وانتقلت إلى هذا المكان البعيد عن الحضارة على أحد سواحل أوستراليا المقفرة، بينما الأحداث خطيرة إلى هذا الحد.

ازدهرت مدينة بروم بفضل صناعة اللؤلؤ حين كان الكثيرون يلقون حتفهم وهم يجمعون الأصداف من قعر البحار. وهي مدينة متعددة الثقافات، تقع في الطرف الآخر من الكرة الأرضية بعيداً عن رجال المال في أوروبا. ويجذب تاريخها وموقعها الإستوائي، عند طرف الساحل الغربي

لمنطقة «كمبرلي»، السواح. إلا أنه ما من أحد يرتدي بذلة هنا، سواءً من المواطنين أو من الزائرين، بل يفضلون ارتداء الملابس الخفيفة نظراً لشدة الحر.

ها هو يعبر، من جديد، الطريق التي تفصل بين المنتجعات والمقهى. وقد التفت برأسه نحو موقف السيارات، فأصبح من الصعب عليها رؤيته جيداً. إلا أن البذلة أنبأت «كريستابل» بالكثير.

فهذا الشخص غير المهيأ للجو الاستوائي، كان، دون شك، على عجلة من أمره، ولم يتسنَ له تبديل ملابسه. وتنبهت فجأة إلى أنه توجّه إلى موقف العربات المحاذي للشاطىء.

لكن «أليسيا» قد عادت إلى العربة لتحضر شراباً بارداً!!

أصيبت كريستابل بالذعر واجتازت المياه مسرعة والاضطراب بادٍ عليها. كانت تركض في المياه الضحلة وعلى الرمال الرطبة بخطى ثابتة، حتى تصل إلى الصخور الناتئة المؤدية إلى المخيّم. ماذا لو كان هذا الرجل واحداً منهم، وجاء ليأخذ أليسيا، ليخطفها ويعيدها إلى تلك الحياة؟... لا.. لا، أبداً..!

وثارت ثائرتها وهي تقفز من صخرة إلى أخرى، مسرعة لإنقاذ ابنتها. فقد صممت على إبقائها بعيدة عن عالم الكوابيس الذي يصر رجال المال على جرها إليه.. لن تدعهم أبداً يعيدون أليسيا إلى أوروبا. فابنتها تعيش في أمان هنا.. وحبذا لو أنهم يدعونها بسلام لتحيا حياة طبيعية!

عند وصولها إلى موقف العربات المغطى بالعشب، كان قلبها يخفق بسرعة وهي تحث الخطى وشعرها الطويل المبلل يتطاير حولها. انتاب القلق أصحاب العربات المجاورة وهم يرونها تسرع بهذا الشكل وأخذوا ينادونها، لكنها لم تستطع التوقف أو الإجابة. فعليها أن تصل إلى أليسيا قبل أن يعثر عليها الرجل ذو البذلة.. أتراه يعلم أين يجدها، وفي أيّ عربة تقطن؟ لم تلمح الرجل أمامها ولكنها كانت واثقة من أنه في الجوار.

وعندما اقتربت من المكان، استجمعت ما تبقى لديها من قوة، وقفزت فوق كومة من الحبال والمعدات الخاصة بالمخيم لتستدير بعدها حول سيارتها «الڤان».. وتقف جامدة لا تحرك ساكناً.

رأت الرجل ذو البذلة... يتحدث مع ابنتها، لكنه لم يكن واحداً منهم.

إنه رب عملها في بروم، جيرد كينغ.. ولا علاقة له أبداً بمن يطاردها.

إلا أنها كانت تعي في قرارة نفسها أنه السبب الرئيسي في بقائها في هذا المكان كل هذه الفترة.

سألها، مقطباً جبينه لما بدا عليها من اضطراب:

ـ هل من خطب؟

اتكأت على جانب الڤان، وقد شعرت بارتياح غامر. وراحت تضغط على قلبها الذي كان يخفق بشدة، وتبعد بيدها الأخرى خصلات شعرها المبللة عن وجهها.. تلك الجدائل السوداء التي تصل إلى خصرها وتحاكي الحبال المفتولة. شعرت بالارتباك وهي تقف أمامه في المايوه مضطربة، عاجزة.

ـ لماذا كنت تركضين، يا ماما؟

ارتسمت على فمها ابتسامة بعثت الطمأنينة في قلب ابنتها البالغة من العمر خمس سنوات، وقالت:

ـ ظننتك ضللت الطريق.

فأجابت أليسيا ساخطة:

ـ وهل اعتدت ذلك؟

كانت اليسيا طفلة جميلة ومشاغبة. تحيط بوجهها الصغير الجميل هالة من الشعر البني المجعد، وتضيئه عينان كهرمانيتان واسعتان لا أثر للخوف أو للكبت فيهما. شعرت كريستابل بالحيرة لهذه الثقة بالنفس التي

اكتسبتها ابنتها هنا، في موقف عربات «بروم». وشكرت الله على هذا.
وقالت تهدئ ابنتها:
ـ تأخرت كثيراً وكنت أشعر بالظمأ الشديد.
في تلك اللحظة تنبهت إلى أن جيرد كينغ كان يتفحصها ساخراً، وتمنت لو أنه لم يشهد خوفها. ففي بعض الأحيان كانت تشعر بأنه حاد الذهن إلى حد الإزعاج، خاصة وأنه لا يسعها الكشف عن أسرارها، فإن علم الناس من هي، ومن تكون ابنتها، تغير كل شيء.
رفعت أليسيا سلة فيها زجاجتي عصير، قائلة:
ـ كنت عائدة إليك.. انظري..
وأيدها جيرد حاملاً زجاجة بيده:
ـ أظن أنه عليّ أن أعتذر لتأخيرها. فقد تلطفت أليسيا وقدمت لي أيضاً شراباً بارداً.
ـ لماذا ترتدي بذلة؟
نطقت كريستابل بهذه الكلمات بلهجة اتهامية قبل أن تتمكن من ردع نفسها، فارتسمت على ثغره ابتسامة ساخرة. في الواقع، كان جيرد قد خلع سترته ووضعها على كتفه، وأرخى ربطة عنقه وثنى كمي قميصه. مما أظهر تلك الرجولة التي تنبعث على ما يبدو من الأخوة «كينغ» الثلاثة، وتجعلها تشعر بأنوثتها.
قالت بسرعة:
ـ أرى أن الحر شديد ومن السخافة ارتداء بذلة. لا عجب أنك تشعر بالعطش..
فأجابها ساخراً وعيناه تتأملانها باستحسان:
ـ أعترف أنني أفضل أن أرتدي بذلة سباحة.
لم يكن جيرد كينغ خبيثاً، ولا تنم نظراته عن ذلك، لكنها شعرت بسروره وهو يتفحص بإمعان لباس البحر الناعم الذي ترتديه، ويبرز

مفاتن جسمها بشكل واضح.. أدركت في الحال أن سروره يبعث في نفسها شعوراً غريباً بالسعادة، تشوّش ذهنها وتثير في جسدها ردات فعل تزيد من إحساسها بالتعاسة واللاستقرار. حبذا لو لم يكن وسيماً وجذاباً إلى هذا الحد!
وتابع كلامه قائلاً:
ـ كنت، في الواقع، عائداً من المطار إلى بيتي.
هذا صحيح! فقد كان من المتوقع أن يصل اليوم من رحلة العمل التي قام بها إلى هونغ كونغ. ولكنها لم تتخيل أبداً أن الرجل الذي يرتدي البذلة هو جيرد، بالرغم من أن تعامله مع الصينيين يحتم عليه ذلك، ليستحق احترامهم على مختلف الصعد. فهو يترأس شركة صناعة اللؤلؤ التي تعود لأسرته، ويلقب بـ «ملك اللؤلؤ». لكن كريستابل كانت تفضل أن تناديه بـ (ملك المشاعر) لما تثيره نظراته الدافئة فيها من أحاسيس..
ـ وتذكرت فجأة أن أمي مسافرة..
كانت والدته.. أليزابيت كينغ، حادة الذهن، رزينة، تعلمت من مدرسة الحياة دروساً لا تنسى مما جعل كريستابل لا تشعر بالارتياح بصحبتها..
ـ وما من أحد أتحدث إليه وأتسلى معه..
ما الذي حثه على التحدث عن الوحدة، وما من مكان لها في حياة شخص مثله؟ أم لعله يلمح إلى وحدتها هي؟
ـ هل ترغبين بتناول العشاء معي لنتحدث عن تصاميمك التي أخذتها معي إلى هونغ كونغ؟
ارتسمت على ثغره ابتسامة جذابة، ونمّت عيناه عن تحدٍ ساخر وهو يضيف الطعم إلى تلك الدعوة الشخصية. كان يعي أنها ترفض دوماً التطرق معه إلى مواضيع خارجة عن إطار العمل، فارتأى أن يطرح الموضوع من هذه الناحية ليرى مدى تجاوبها معه.

شعرت بالزهو للتصاميم التي أطلق جيرد يدها في إبداعها، فسألته والفضول يتآكلها:

ـ العشاء؟

يا له من إغراء... وما أغرب أن يصدر عن رجل بالغ الأناقة والرقة، وعلى هذا القدر من الجاذبية! فقد كان جيرد طويل القامة، متناسق الجسم والملامح، شعره أسود ينسدل فوق جبهته بنعومة. إلا أن ملامحه قوية وخشنة، ما عدا شفته السفلى الممتلئة والتي تضفي على فمه تعبيراً شهوانياً، غالباً ما تلمحه في عينيه البنيتين الداكنتين... تلك العينين اللتين تتأجج فيهما، وهما تنظران إليها، وعود السعادة والبهجة.

أخذت كريستابل نفساً عميقاً، وتمنت لو أنها تستطيع أن تطلق العنان لمشاعرها. وأجابته بفتور:

ـ تخبرني غداً، في المكتب، كل شيء.

ـ كنت آمل أن نقضي معاً أمسية ممتعة.

كانت تشعر برغبة جامحة في قبول دعوته، ولكن لطالما حدثتها نفسها بأنه سيطلب منها الكثير. فلم يكن جيرد كينغ من الرجال الذين يقنعون بالقليل، ومظهره الدمث الهادئ يخبئ إرادة فولاذية.

ـ تعد لي «فيكي خان» طعاماً شهياً، وأظن أنه سيعجبك جداً. أؤكد لك أن طبق السمك الذي تحضره لذيذ للغاية ويستحق أن تتذوقيه.

أراد من كلامه هذا أن يقنعها ويمحو مخاوفها، مؤكداً لها أن مدبرة المنزل ستكون موجودة، ولن تتركهما لوحدهما.

لكنه كان يعلم تماماً أن الطعام ليس المشكلة. وتدخلت أليسيا قائلة:

ـ أنا أحب الطعام الصيني.

ابتسم لها جيرد ابتسامة ساحرة، وقال:

ـ ما الذي تفضلينه؟

ـ القريدس بالعسل.

فأجابها:

ـ هذا شهي، إنني واثق من أن فيكي تستطيع أن تعد لك شيئاً منه إن وافقت والدتك على إحضارك معها إلى منزلي لتناول العشاء هذه الليلة.

كانت هذه محاولة ابتزاز غير عادلة، إذ لم يحاول من قبل أن يشرك ابنتها بالدعوة بشكل مباشر. استشاطت كريستابل غضباً إزاء اتفاقهما ضدها وتنبهت إلى أنهما يحدقان بها منتظرين ردها وقد بدا السرور على وجه أليسيا لما ينتظرها من أطباق لذيذة على العشاء.

ـ هل يمكننا الذهاب، يا ماما؟

فأجابت باقتضاب:

ـ لا أظن ذلك.

ذهلت ابنتها إزاء رفضها، وسألتها:

ـ لما لا؟

فردد جيرد سؤالها برقة:

ـ نعم.. لما لا؟

رفعت كريستابل نظرها إليه، وقالت له وقد أثار المأزق الذي وضعها فيه سخطها:

ـ تتناول أليسيا طعامها باكراً وتخلد إلى الفراش عند الثامنة..

فألقى نظرة على ساعته:

ـ لا عليك. لم تتجاوز الساعة الخامسة بعد، وإذا جئتما عند السادسة..

فانفجرت قائلة:

ـ كفّ عن هذا يا جيرد.

رمقها بنظرة تتأجج لهفة، هدمت كل الحواجز التي أقامتها بينهما.. وفتحت عينيها على الحقيقة التي لا يمكنها نكرانها، وهي أن الانجذاب متبادل بينهما.

قال لها بهدوء:

ـ ثمة أمور لا يمكن الكف عنها، يا كريستابل.

ولم تجد رداً على كلامه البالغ الصدق هذا.

تملكها التوتر وهي تقاوم تلك المشاعر العميقة التي أيقظها فيها. كانت تميل إلى هذا الرجل بكل جوارحها. ولكن عقلها أصر على أن التورط معه سيوطد علاقة الصداقة التي تربطه بأليسيا، وهذا ما لن يسمح به أبداً رجال المال، وسينتهي بها الأمر إلى العذاب لا محال.

وأضاف جيرد برقة فائقة:

ـ ولكن الخيار يعود لك.

ما الذي ستشعر به إن لامست أصابعه الطويلة البديعة وجهها؟ أتراها ستشعر بالحب والرعاية وبقيمتها البالغة عنده؟ أخذ قلبها يخفق متضرعاً إليها لتستبعد كل العوامل التي سيطرت على حياتها لسنوات طويلة، ولتقوم بالاختيار الصائب..

ـ أود أن نذهب، يا ماما.

ولما ترفض الذهاب؟ طرحت كريستابل هذا السؤال على نفسها، وهي تنظر إلى ابنتها بحب وألم. لماذا لا تستمتع أليسيا بصحبة رجل لا يعتبرها دمية بين يدي وحش جشع؟ لماذا لا تحيا في بروم حياة طبيعية.. لما لا؟

قالت بحزم:

ـ سنذهب إذن.

صفقت أليسيا بابتهاج، ثم رفعت إلى جيرد وجهاً متألقاً:

ـ قريدس بالعسل.

ضحك لها وطمأنها قائلاً:

ـ لم أعتد أن أنكث بوعودي. سنعد لك القريدس بالعسل.

ـ ومثلجات بالشيكولاتة؟

فقالت كريستابل مؤنبة:

ـ أليسيا!

أسرعت هذه الأخيرة تبرر نفسها:

ـ كنت أسأله وحسب، يا ماما.

ـ تعلمين جيداً أنك تسيئين التصرف.

فتنهدت الطفلة باكتئاب:

ـ آسفة.

تنهدت كريستابل بدورها، وخشيت أن تكون قد أقدمت على ضرب من الجنون سرعان ما تندم عليه. لكنها عندما رفعت بصرها إلى عيني جيرد ورأت السعادة فيهما، لم تعد تكترث لنتائج قرارها هذا.

ـ سنذهب عند السادسة والنصف.

كانت تحتاج لبعض الوقت لتتهيأ للعشاء، وقد شغلتها مشاعر امرأة ستعد نفسها لأمسية تمضيها مع رجل يريدها لنفسها وليس لغناها الفاحش.

ابتسم لها ابتسامة ساحرة، خفق لها قلبها وقال:

ـ هذا يناسبني تماماً.

فأجابته بصوت أبح مليء بمشاعر كبتتها منذ سنوات:

ـ شكراً.

ـ على الرحب والسعة.

ابتسم لأليسيا وقال:

ـ مثلجات بالشيكولاتة؟

فعقدت يديها متمنية:

ـ أرجوك.

ـ سأشتريها لك في طريق عودتي إلى البيت.

ـ آه، شكراً!

رفع يديه ملوّحاً، ثم ابتعد بخطوات ثابتة، وكأنه محارب سيطر على

www.elromancia.com

العالم برمته. كانت كريستابل تعلم في قرارة نفسها أن هذا غير صحيح، لأن جيرد كينغ لا يملك إلا هذه البقعة الصغيرة من العالم. وتذكرت زيارتها إلى مزرعة المواشي الكبرى التي تملكها عائلته؛ وهي عبارة عن أرض فسيحة تقع في الناحية الأخرى من بروم، وتسمى «جنة كينغ». فقد دعيت كريستابل مع مجموعة من الموظفين العاملين في شركة صناعة اللؤلؤ إلى عرس «ناثان كينغ». كان احتفالاً ضخماً حضره عدد من سكان أستراليا الأصليين وأدوا خلاله رقصاتهم الشعبية.

سرت كريستابل لحضورها الحفل وتعرفها إلى هذه التقاليد القديمة المرتبطة بالأرض.

لكن هل ستكون هي حيّة «جنة كينغ» التي ستنقل الإثم وتسمم سلام فردوسه؟ سيأتون عاجلاً أم آجلاً.. أولئك الرجال الأقوياء لابسو البذلات.. ليدمروا الحياة التي أسستها هنا، ويقضوا على العلاقات الطبيعية التي أقامتها مع الناس.

وارتجفت كريستابل وهي تتذكر كلمات جيرد:

ـ ثمة أشياء لا يمكن الكفّ عنها.

ولكنها أدركت أنها تنطبق على أمور أخرى عدا مشاعرهما المتبادلة.. ومع ذلك غمر التمرد مخاوفها التي تعذبها.

* * *

٢ ـ حرب مع الظلال

انتابها الخوف عندما رأته مرتدياً بذلة!

أخذ جيرد يفكر في هذا الأمر ملياً وهو يقود سيارته إلى السوق ليشتري المثلجات بالشوكولاتة. إنها قطعة جديدة في لعبة تركيب الصورة التي راح يجمعها منذ تعرف إلى «كريستابل فالدز»، وكلما فكر فيها أكثر، كلما أيقن أنها قطعة أساسية.

فقد شكل ظهوره المفاجىء تهديداً لراحة بالها. أترى أثارت البذلة ذكريات سيئة، أم أنها كانت تخشى عودة شخص يرتدي البذلات إلى حياتها من جديد؟

لم يعر جيرد الفكرة الأخيرة اهتماماً. ولكن أيعقل أن يكون لهذا صلة باختيارها السكن في منزل نقال يمكنها الهرب به إن شعرت بخطر داهم؟ من ناحية أخرى، ثمة أناس يحبون حياة الرحل التي توفرها لهم المنازل النقالة، كما أن البعض لا يحبذ إرساء جذوره في مكان واحد. من المستحيل كشف حقيقة كريستابل إلا إذا قررت بنفسها الإفصاح عنها.

ليس من اللائق نبش ماضي الأشخاص الذين يأتون للعمل في سواحل أستراليا المقفرة، خاصة وأن الأسباب التي قد تدفعهم إلى ترك الأماكن المتحضرة متعددة. فالبعض يرغب بتغيير نمط حياته، والعيش في أراضٍ واسعة، أو اكتساب تجارب جديدة.. إلا أنهم في هذه الحالة، يفصحون عن نواياهم. أما البعض الآخر فيلزم الصمت، لإخفاء ما

www.elromancia.com

تركوه خلفهم.. وهذا من شأنهم وحدهم، وعلى الآخرين احترام قرارهم وتفهمه.

أما كريستابل فلم تفصح عن ماضيها سوى بالقليل، وقد استنتج جيرد بأنها تريد نسيانه. ولعل أكثر ما يغيظه ويسبب له الإحباط، هو الجهد الذي تبذله لإبعاد كل شخص يتودد إليها، بمن فيهم هو، وكأنها لا تستطيع أن تثق برجل مهما بلغ حبها له. إذ كان واثقاً كل الثقة من مشاعرها نحوه.

ضغط بأصابعه على عجلة القيادة وكأنما تملكه شعور بالنصر، فقد استطاع أخيراً أن يحطم الحواجز التي أقامتها ويرغمها على تلبية دعوته. ولكن لماذا الآن؟.. وهز رأسه، بلا اكتراث.

ربما أدركت أخيراً أنه لا مبرر لمخاوفها، مهما كانت أسبابها.. وهذا ما يأمله. لأنه لا يريد أن يلعب الخوف دوراً في علاقتهما. فقد سنحت له الفرصة أخيراً للتقرب منها، بعد أن حاصرها لأكثر من خمسة أشهر.

كريستابل..

أبهجه إيقاع اسمها الجميل.. هذا الاسم الذي حسب أنه سيلازمه طوال حياته، مقروناً بمشهد تينك العينين اللتين تبرقان كالذهب، في اللحظات التي تخالج صاحبتها مشاعر قوية، وتشتدان سواداً، في لحظات الغبطة.

إنها امرأة بقلب نمر، سمراء، ساحرة، شعرها الأسود الطويل ينسدل على ظهرها كالحرير، وأنوثتها جلية. إن اسمها وصورتها لا يبارحان خياله، وقد حسب أنها ستبقى مجرد وهم في خياله إلى الأبد.

والليلة ستكون معه.

بذل جهداً كبيراً لاخماد فرحه، حتى أصابعه كانت تتحرق شوقاً وهو يرفع هاتف السيارة ليتصل بمنزله. وجاءه على الطرف الآخر الصوت الرتيب المألوف لديه:

ـ فيكي تتكلم.

تملكه سرور بالغ وهو يقول:

ـ لدينا ضيوف على العشاء، يا فيكي.. كريستابل وابنتها.

ـ آه، انتصرت إذن.. قلت لأمك إن جيرد سيحقق مراده، لأنه لا يعرف الخسارة.. فهو يسعى وراء غايته إلى أن يفوز بها.

دفعه كلامها هذا للضحك.. منذ نعومة أظافره وفيكي خان تعنى بشؤون المنزل لدى جده الأرمل. وبعد وفاته، بقيت انغس بيكارد تعمل لدى والدته في المنزل القديم. وكان من البديهي إذن أن تعلم باهتمامه بكريستابل، فضلاً عن كافة ما يدور في «بروم» من خلال أحاديث معارفها المقيمين فيها، منذ زمن طويل، وفضلاً عن كلام أمه التي اعتادت الإفضاء إليها بكل ما يقلقها.

قال لها:

ـ سأشتري المثلجات لأليسيا، كما أنني وعدتها بطبق القريدس مع العسل..

ـ لا بأس.. سأتصل بالمتجر لأطلب القريدس، والمزيد من السمك. هل تحب كريستابل السمك؟

ـ إنني واثق من ذلك.. ستصلان عند السادسة والنصف لأن أليسيا تنام في الثامنة.

ـ سأهتم بالصغيرة.

ـ قد لا تبقيان حتى الثامنة، يا فيكي.

لم يشأ أن يأمل الكثير، بعد أن استاءت كريستابل من استغلاله أليسيا للضغط عليها، كما وأن خضوعها لإرادته قد لا يعني شيئاً.

ـ سأبذل جهدي لأدعك تنفرد بها بعض الوقت يا جيرد، فأنا أحسن التصرف مع الأطفال.

أثارت ثقتها به ضحكه:

ـ إنك عجوز ماكرة، يا فيكي.

سمعها تضحك مسرورة وهي تقفل الخط لتجري اتصالاتها. وتخيل وجهها الصغير تزينه ابتسامة سعيدة وعينيها السوداوين تتألقان دهاءً.

كانت فيكي قد بلغت، حسب تخمين جيرد، الثمانين من عمرها، رغم أنها لم تفصح قط عن سنها. إلا أنها لم تزل نشيطة وتحب الاستمتاع بالحياة. ولا شك إنها اتصلت لتوّها ببائع ثمار البحر وطلبت منه أفضل ما عنده، مهددة إياه بأبشع قصاص إن لم يحضر لها ما تريده. وها هي تحمل بيدها القلم الذي تدسّه دوماً في عقدة شعرها الخفيف الأبيض، لتدون ملاحظات لا يستطيع أحد سواها قراءتها.

وعلى الرغم من أن جيرد يحسن اللغة الصينية، إلا أنه لم يستطع يوماً أن يفك رموز كتابتها. ولعل أكثر ما كان يفرح قلب فيكي هو أنها استطاعت الاحتفاظ بأسرارها الصغيرة لنفسها، بينما كانت تستدرج الآخرين للبوح بأسرارهم باستثناء كريستابل التي لم تستطع أن تعرف أي شيء عنها أكثر مما يعرفه جيرد. وهو ما لا يكفي أبداً!

من خلال أحاديثهما عن الماس، تبين له أنها تعرف أمستردام وسنغافورة أيضاً. ربما يعود ذلك إلى توقفها فيهما وهي في طريقها إلى أستراليا. ولكن مهما يكن الأمر، فمعلوماتها عن الجواهر وقيمتها واسعة جداً.

أوقف سيارته في شارع «كارنارفون ستريت»، ثم قطع الطريق إلى متجر واشترى علبتين كبيرتين من المثلجات. لعل كريستابل ترغب بتناول القليل منها أيضاً.

ثم اجتاز طريقاً قصيراً ليصل إلى جرف شديد الانحدار يشرف على خليج «روباك باي». كان موقعه ممتازاً في نظر جيرد، بالرغم من أن المنزل نفسه كان عادياً. فهو عبارة عن منزل كبير متداع، مبني من الخشب، تحيط به من جهات ثلاث شرفات فسيحة يمكن إغلاقها خلال العواصف.

كان للمنزل في قلب أمه قيمة تاريخية كبيرة، كما أن مساحته الواسعة تسمح باستضافة كافة أفراد الأسرة، عندما يحضر أخوته من بروم. وهذه الليلة سيستضيف كريستابل فالدز وابنتها على العشاء. وقد قطع على نفسه عهداً وهو يتجه إلى المطبخ حاملاً المثلجات، بأن يحاول إقناعهما بالبقاء لأطول مدة ممكنة.

كانت فيكي تقطع الخضار، فسألها وهو يفتح الثلاجة:

ـ هل كل شيء على ما يرام؟

فنظرت إليه بانتقاد وقالت:

ـ طبعاً. إن الحرّ شديد وثيابك ملتصقة عليك. عليك أن تستحم وتحلق ذقنك.

فنظر إليها مبتسماً وقال مازحاً:

ـ لن أنسى أن أفرك أسناني أيضاً.

واستطردت قائلة من دون أن تعير كلامه اهتماماً:

ـ إن العطر الذي تضعه مناسب جداً.. فمن الصعب تحديد رائحته.

ـ يسرني أنه أعجبك، هل كنت تشمينه؟

ـ تحتاج إلى كافة الأسلحة المتوفرة لديك للإستفادة من هذه الليلة.

ـ لا أحتاج إلى هذا النوع من الأسلحة، لأنها لا تؤثر على كريستابل مطلقاً. لا شيء يؤثر عليها.. لا مركزي ولا مالي، ولا نفوذي.

ـ ربما.. وربما لا. أظن أن المرأة الذكية تمدّ الحبل للرجل لكي يشنق نفسه به. إنك رجل استثنائي يا جيرد، وما من امرأة استطاعت أن تشدك إليها بهذه القوة.

فهز رأسه قائلاً:

ـ لكنها لا تراني رجلاً استثنائياً.

فرفعت عينيها ساخرة، وقالت:

ـ مدير مؤسسة بيكارد لصناعة الماس؟ وملك اللؤلؤ في كمبرلي؟

ـ إنها لا تكترث لهذه الأمور كلها، وإلا للاحظت ذلك. فأنا لست مغفلاً يا فيكي.

ـ الحب أعمى أحياناً.

ـ ليس إلى هذا الحد.

طرق أحدهم الباب الخلفي، فأسرعت فيكي تفتحه وهي تقول:

ـ آه، وصل القريدس والسمك. انتهت الجلسة معك، يا جيرد. وإن كنت تسألني رأيي، فأظن أن كريستابل تلك مغفلة إن لم تكن تراك رجلاً استثنائياً.

خرج جيرد من المطبخ إلى جناحه الخاص وهو يفكر في أن كريستابل ليست مغفلة. لكنها تهتم بأمور أخرى غير المال والجاه. وقد اتضح له هذا منذ البداية، وبقي موقفها المستقل هذا ثابتاً منذ ذلك الحين. فهي امرأة تكافح وتعمل من أجل نفسها ولا تسمح لأي غريب بالتدخل في حياتها.

ألقى بحقيبة أوراقه على مكتبه، ثم دخل ليستحم ويحلق ذقنه، وقد عادت به الذكريات إلى الأشهر القليلة الماضية.

* * *

العقد.. رفع نظره عن أوراقه فرآه حول عنق سكرتيرته..

ـ من أين حصلت على قطعة المجوهرات هذه؟

فأجابت بارتباك:

ـ آسفة! أعلم أنه ينبغي عليّ أن أتزين باللؤلؤ.

ـ لا عليك. أريد فقط أن أعرف من أين حصلت عليه لأن تصميمه رائع.

إنه أنيق يجذب الأنظار.

ـ نعم، لقد أحببته ولم أستطع مقاومة شرائه.

ـ من أين اشتريته؟

ـ من أسواق «شاطىء المدينة» مساء الجمعة.

ـ الأسواق؟

لم يكن ذلك السوق شعبياً، وإنما عالي المستوى.

ـ نعم، تكثر عادة في هذا السوق الأشياء الرخيصة، ولكنني عثرت على مجموعة صغيرة من المجوهرات الراقية، على منصة تبيع علب مجوهرات مخملية. كنت أرغب بشراء المزيد، لكن هذا العقد كلفني سبعين دولاراً.

ـ هل هو محلي الصنع؟

ـ وصلت مصممته حديثاً إلى هنا، وهي تعيش في موقف المنازل النقالة. يدل شكلها على أنها أجنبية، ولكن البعض يقول إنها قادمة من البرازيل.

أجنبية.. خيل إليه أنها امرأة ضخمة الجسم ترتدي ثوباً فضفاضاً متعدد الألوان.. غير أن العقد الجميل دفعه إلى أن يقصد منصّات السوق في «شاطىء المدينة» مساء الجمعة التالي.

عند رؤيتها لأوّل مرة.. شعر بأنها تجذبه إليها كالمغناطيس، وراح قلبه يخفق بسرعة. كانت تتحدث إلى صاحب المنصة. أتراها شعرت بوصوله؟ إذ التفتت إليه بحدة وتلاقت عيناهما بنظرة أثارت فيهما رعشة غريبة. كم دامت تلك النظرة؟ ثوانٍ؟ ثم تصلب جسدها وكأنها شعرت بخطر يحدق بها، وأسدلت أهدابها وأشاحت بنظرها عنه.

تسمر جيرد في مكانه، وأحس وكأنها وضعت حواجز بينهما لإبعاده قدر المستطاع. ولكن رغبته بالمقاومة كانت أقوى منه، وأدرك عندها أنها لا تعرفه، وهو أيضاً لا يعرفها. فحاول أن يخفف من عدائيته، مردداً في نفسه أن العنف في التصرفات لا جدوى منه.

اقترب متمهلاً، وأخذ يتفحص بعفوية المجوهرات المعروضة على المنصة التي تقف هي خلفها. لاحظ أن لكل قطعة منها تصميماً فريداً من

www.elromancia.com

نوعه، يدل على إبداع فني، فأثار ذلك في نفسه مشاعر جياشة تحاكي تلك التي شعر بها نحو مصممتها. لقد مزجت في كل قطعة منها، شيئاً من روحها وعقلها لتنتج هذه التصاميم الخلابة. فلم يستطع مقاومة رغبته في لمس هذه القطع.

ـ هل صنعتها بنفسك؟

فرفعت بصرها إليه، وردت:

ـ نعم.

وقفت جامدة ترمقه بعينين يقظتين، وكأنها قطة تراقبه بحذر منتظرة حركته التالية.

قال لها مبتسماً:

ـ هل هي من تصميمك؟

أجابت دون أن ترد له الابتسامة:

ـ نعم.. هل تريد الشراء؟

كانت تريده أن يرحل، مما أثار فضوله أكثر وقال:

ـ لا بد أنك تعلّمت هذا.

فهزت كتفيها:

ـ أنا أعمل لحسابي. هل تريد الشراء؟

ـ قيل لي إنك برازيلية. ربما كنت تعملين مع «هـ. ستيرن» في العاصمة «ريو دي جانيرو»؟

ازداد توترها ورمقته بنظرة فاترة:

ـ لماذا تسأل عني؟ من أنت؟

ـ جيرد كينغ رئيس «شركة بيكارد لصناعة اللؤلؤ» هنا في بروم. كنت أبحث عن شخص غير عادي، وأظنني وجدته.

عاد الحذر إلى عينيها.. فاستطرد جيرد قائلاً:

ـ أريد مجموعة فريدة من تصاميم المجوهرات للآلئنا. أظنك مناسبة

لهذا العمل.

فأجابته دون أن تعر كلامه اهتماماً:

ـ لست الشخص الذي تبحث عنه، يا سيد كينغ.

أجاب بجفاء:

ـ أظنني وحدي القادر على الحكم على ما أريد.

فجاءه الجواب الحاد:

ـ وأنا أحكم على ما أريده.

ـ ربما يستحق الأمر منك عناء التفكير..

فقاطعته بحزم:

ـ كلا. إنني أعمل لحسابي، وأحب عملي بهذا الشكل. والآن، إذا كنت لا تريد الشراء..

ـ سأشتري كل شيء.

أجفلت، وبدا عليها عدم التصديق، ثم قالت مرتبكة:

ـ لن تحصل سوى على المجوهرات، يا سيد كينغ.

ـ لم أتصوّر غير ذلك يا آنسة...؟

توترت شفتاها وهو يطلب معرفة اسمها، وفكرت في أن تمتنع عن الإدلاء به. لكن ذكاءها حدثها بأنه من السهل عليه معرفته من الآخرين هنا. فأجابت بتوتر:

ـ ڤالدز.

أخرج محفظة نقوده، وسألها:

ـ كم تريدين؟

أخذت تلف كل قطعة بورقة منفصلة، وتسجل ثمنها، ثم أضافت المجموع وأرته الفاتورة ليراجعها بنفسه. دفع ثمنها، وناولها بطاقته وهو يقول بهدوء:

ـ أثارت موهبتك اهتمامي وأرجو أن تعاودي التفكير في عرضي،

www.elromancia.com

أرجوك. واسألي عن حسابي في البنك. أرقام هاتفي مدونة على البطاقة.

ـ شكراً.

قالت له ذلك بجمود دون أن تعطيه شيئاً سوى كيس البلاستيك الذي وضعت فيه اللفائف.

وإذ لاحظ معاملتها الجافة له، وأدرك أنه لن يستفيد شيئاً من البقاء، غادر وهو مصمم على العودة مرة أخرى إذا لم تقصده هي. انتظر أسبوعين، ليتسنى لها أن تسأل عنه وتفكر في الفوائد التي ستجنيها من عرضه، ولكنه لم يسمع عنها شيئاً. فأخذ يلاحقها.. وفي كل مرة يقابلها، يسود الجو التوتر، بالرغم من إحساسه بانجذابها إليه والجهد الذي تبذله لإنكار ذلك. مر شهر بكامله قبل أن يتمكن من إقناعها بالعمل في التصميم لحسابه، إلا أن علاقتهما لم تتخط يوماً حدود العمل. وقد أقفلت كريستابل في وجهه أي باب أراد أن يدخل منه إلى حياتها الخاصة.

* * *

رقص معها في عرس ناثان.. كم كان مسروراً وهو يأخذها أخيراً بين ذراعيه.. مع أنها حاولت إبعاده عنها بيديها، مقاومة أي تلامس بينهما.

ـ هل تستمتعين بزيارتك إلى «جنة كينغ؟».

فابتسمت باسترخاء:

ـ كثيراً، إنها عالم قائم بذاته.

رأى وجهها يضيء لأول مرة وهي تعبّر عن مشاعرها إزاء ما رأته أو شعرت به. فأحيت تعليقاتها الإيجابية أمله في إدخالها إلى حياته، وحثها على الاستمتاع بذلك.

ـ وها قد تعرفت الآن إلى أسرتي بأكملها.

حاول من خلال كلامه أن يعرف شعورها نحو أسرته، فقالت بابتسامة غامضة:

ـ نعم. لا بد أن أمك فخورة جداً بأبنائها الثلاثة، ومسرورة بزواج ناثان.

كان جوابها أقرب إلى ملاحظة عادية منه إلى تعبير عن رأي شخصي، مما حال دون بلوغ جيرد هدفه مرة أخرى.

ـ وماذا عن أسرتك، يا كريستابل؟

ابتسمت ابتسامة صفراوية وقالت:

ـ لا عائلة لي سوى ابنتي.

وبدت بارقة إنذار في عينيها «وهذا يناسبني».

ـ لينك أحضرتها معك خلال عطلة نهاية الأسبوع.

وفي الواقع، كان من الغريب ألا تحضرها معها نظراً لشدة خوفها عليها.

فأجابت:

ـ إنها بأمان مع الأسرة التي تقيم معها، فأنا أعرفهم من السوق. إنهم أناس طيبون، ويقيمون في بروم منذ زمن طويل.

ـ أردت إذن المجيء وحدك.

فقالت ساخرة:

ـ أردت إرضاء فضولي فحسب يا جيرد، فلا تذهب بتفكيرك بعيداً.

ـ وهل أرضيت.. فضولك تماماً؟

سألها ذلك متحدياً، فهزت كتفيها قائلة:

ـ وكيف لي أن أعرف أسطورة لم أعشها؟ ملوك كمبرلي.. البيوت التي تملكونها، هنا وفي بروم منذ مئة عام. لا يمكنني أن أكتشف سوى نقطة في هذا البحر الواسع.

دفعه جوابها المراوغ إلى أن يسألها:

ـ هل ترين فكرة التجذر في الأرض مقبضة؟

ـ وهل وجدتها أنت مقبضة؟

www.elromancia.com

- كلا.

- إنها الآن جزء منك، أليس كذلك؟

وكان هذا تقرير واقع أكثر منه سؤالاً.

- نعم.

- عليك إذن أن تبقى سعيداً بحياتك.

أثار الاستسلام في صوتها القنوط في أعماقه. لماذا تحرص على البقاء بعيدة عنه؟ لماذا لا تدع الانجذاب بينهما يأخذ مجراه الطبيعي؟

- وهل يشعر المرء بالسعادة الكاملة من دون رفيق يشاركه حياته؟

وأشار إلى العروسين وهما يرقصان على بعد أمتار قليلة منهما، ثم أضاف:

- أنظري إلى ميراندا ونائان. تلك هي السعادة، يا كريستابل! ألا تتمنين ذلك.. لنفسك؟

بدت على وجهها تعابير الحنين وهي تنظر إلى أخيه والمرأة التي تزوجها لتوّه. وكسا الحزن ملامحها لبرهة من الوقت، لكنها ما لبثت أن رمقته بنظرة صارمة صريحة، وقالت:

- كنت متزوجة، يا جيرد. وقد مات زوجي، لكنني ما زلت أعيش على ذكراه.

فرد بفظاظة لم يستطع كبحها، شاعراً بحيويتها وجاذبيتها التي لا تقاوم:

- إنه ميت، يا كريستابل. والميت هو ميت.

فقالت ساخرة:

- صدقني.. لن يعجبك العيش في ظله.

لكنه لم يصدقها. فهي ليست امرأة حزينة.

لقد شهد حزن أمه على والده، وكريستابل ڤالدز لا تريد أن يعود زوجها. إنها تميل إليه هو وحده.

* * *

مسح جيرد عن وجهه بقايا كريم الحلاقة، ثم تنبه للقسوة البادية في عينيه المعكوستين في المرآة. كان مصمماً على ألا يدع شيئاً يحول بينه وبين كريستابل ڤالدز حتى ابنتها التي هي ابنة الرجل الذي كان زوجها.

ألقى إلى جانبه بالمنشفة جانباً، وتناول زجاجة العطر، ماركة بلاتنيوم لشانيل.. إذ ينبغي به استعمال أسلحته كلها في هذه الحرب، مع أنه لا يحبذ مقاتلة الظلال ويفضل التلاحم والحركة.

* * *

www.elromancia.com

٣ ـ تواجه جيرد... والعاصفة!

أوقفت كريستابل سيارتها في آخر الشارع الموازي لملكية بيكارد القديمة. كانت الملكية تشرف على «خليج روباك»، ويتوسطها منزل رحب يعد من أهم المعالم التاريخية. فقد بناه الكابتن «تريفور بيكارد»، الذي كان يملك أربعين مركباً للغوص لاستخراج اللؤلؤ في العام ١٩١٩... قرأت كريستابل هذه المعلومات في سجل المتحف.

وهنا يعيش جيرد.

وهو في الداخل ينتظرها.

ضغطت كريستابل بأصابعها على عجلة القيادة وهي تحاول أن تهدئ من روعها. فمنذ أن قبلت دعوته وهي تتحدى كل ما منعت نفسها عنه. كانت كريستابل في السابعة والعشرين من عمرها، ولم تعرف سوى زوجها الذي كان أنانياً، يبحث عن متعته الشخصية. ولكنها على ثقة من أن جيرد سيكون مختلفاً.

ـ هل هذا هو البيت، يا ماما؟

فأجابت بثقة تامة:

ـ نعم.

ـ لماذا لا نخرج من السيارة إذن؟

ـ سنخرج في الحال.

نزلت من السيارة، ثم استدارت إلى الناحية الأخرى حيث تجلس

ابنتها، وهي تحدق في المنزل الذي اختار جيرد العيش فيه. كان منزلاً قديماً متماسك البنيان، وربما كان حرياً بعائلة تملك هذه الثروة الفاحشة أن تهدمه وتبني مكانه منزلاً آخر كبير، حديث الطراز، يترك وقعاً في النفس. لكنه في هذه الحالة كان سيفقد قيمته التاريخية ليصبح رمزاً لثراء أصحابه فحسب، شأنه شأن ذلك المنزل الريفي الفخم التي كانت قد رأته في «جنة كينغ». بدا لها أن هذا المنزل سيبقى صامداً إلى انقضاء الدهر.

كان الاهتمام بصيانته واضحاً للعيان إن من حيث البناء.. أو من حيث الحديقة المحيطة به والتي تكثر فيها النباتات والشجيرات الاستوائية الخضراء.. شعرت للحال بأن ما تراه عيناها يرمز إلى الأشياء التي لا يمكنها أبداً أن تشارك جيرد فيها، فما هي على وشك أن تفعله خطأ فادح لا ينبغي الاستمرار فيه.

ما كان يجدر بها أن تقبل هذه الدعوة.. وأن تحضر إلى هنا. لا يستحق جيرد أن تستغله لتهجره لاحقاً.. لكن لعلها لن تكون علاقة عابرة.. وماذا لو كانت كذلك؟

توقفت عند باب السيارة، وقد نفد صبر أليسيا. هل تعود من حيث أتت؟ وكيف تفسر ذلك لابنتها؟ كيف تفسر لها سلوكها الغريب؟ هذا مستحيل. ولكن، دخولها المنزل مرتدية هذه الملابس المثيرة يشير إلى رغبتها في إغوائه. وسيلاحظ جيرد حتماً ذلك.

وكم ستشعر بالخجل والارتباك من طيشها وتوقها للفت أنظاره!

نقرت أليسيا على زجاج النافذة:

ـ هيا، يا ماما.

عليها أن تخفف من تأثير مظهرها المثير هذا، وتغادر المنزل في أسرع وقت ممكن. إذ لا جدوى من ذلك لأنه سيضيّع وقته معها، هذا الوقت الذي يجب أن ينفقه في البحث عن امرأة أخرى يمكنها أن تجعل لحياته معنى.

www.elromancia.com

من الأفضل أن تقطع صلتها به بعد هذه الليلة، أو تحاول حصرها بالعمل فحسب.

تنفست بعمق لتخفف من اضطرابها، وفتحت باب السيارة ثم فكت الحزام من حول أليسيا، معربة في قرارة نفسها عن سرورها لوجود ابنتها معها. وعقدت العزم على رفض إيواء أليسيا إلى السرير عندما تحين الساعة الثامنة، حتى لا يتسنى لها الانفراد به، إذ لا يسعها المجازفة.

علقت أليسيا وهي ترفع بصرها بينما أمها تخرجها من السيارة:

ـ إنها أشجار كبيرة، أليس كذلك يا ماما؟

فأجابت وهي تبذل جهداً لتحافظ على رباطة جأشها، وقد رفعت بدورها بصرها إلى الأشجار:

ـ إنها أقدم من غيرها من الأشجار في بروم.

كانت أشجار المطاط قد غرست بشكل متراصف على طول هذه الناحية من المنزل، داخل السياج الأبيض الذي يحيط بالأملاك. ويمكن القول إن جذوعها الضخمة البيضاء والرمادية، وفروعها المتشعبة هي خير دليل على السنين الطويلة التي مرت عليها، وعلى رعاية الأسرة لها، واهتمامها بالجذور العميقة، قدر اهتمامها بالعهود الطويلة الأمد. أما أشجار المطاط في الأماكن الأخرى فقد قطعت في الماضي لتستعمل في تجهيز الأبنية في المدن.

أعلنت أليسيا وهي تمسك بيد أمها بسعادة، تتوجهان نحو البوابة الأمامية:

ـ أحب هذا المكان.

كان وجهها الصغير مشرقاً بالإثارة، ودفعتها حيويتها الزائدة إلى القفز مرحاً، مما حمل كريستابل على الابتسام لانطلاق ابنتها على سجيتها. بدت أليسيا حلوة للغاية في ثوب زاهي اللون اختارته بنفسها من السوق، وحذاء خفيف بسيط خيطت عليه أصداف بحرية. وكانت كريستابل

تفضل أن ترتدي ابنتها ملابس مماثلة بدلاً من الملابس الفخمة الباهظة الثمن، التي تجعلها أشبه بسيدة صغيرة متباهية.

تمنت لو أن ملابسها كانت مشابهة، مدركة أن ثوبها القطني الذي يلتصق بجسمها، وينتهي بتنورة واسعة قصيرة، ثوب مثير. فياقته المستديرة، ولونه الأحمر القاتم يبرزان مفاتن جسمها.

وعلى الرغم من الحر الشديد أرخت شعرها ليصل إلى خصرها. لفت حول عنقها شريط جلدي رفيع، أسود اللون علق في وسطه قرص شمس نحاسي، شق إلى نصفين وتدلى من بينهما هلال. إنها قطعة مجوهرات من تصميمها، تحب شكلها البدائي الطبيعي.

أثناء اختيارها لملابسها خالجتها الأحاسيس نفسها التي تخالج كل امرأة تخرج للقاء رجل.. فصممت على الإستمتاع بوقتها وإثارة الإعجاب قدر المستطاع.

وكان من السهل جداً أن تخدع نفسها وأن تعتقد بأن لها الحق في ذلك. فهي لم ترغب في حياتها بلقاء رجل كما ترغب الآن بلقاء جيرد كينغ.

ـ يبدو أن العاصفة على وشك أن تهب، يا ماما.

عند سماعها كلام ابنتها، أفاقت من شرودها ونظرت نحو الخليج، فرأت سحباً سوداء تلوح في الأفق منذرة بالسوء. القمر الشاعري لن يظهر الليلة، وإن كان هذا لا يعني أنها جاءت لتمضية سهرة شاعرية. في الواقع، عاصفة استوائية سريعة هي الصفة التي تنطبق على العلاقة التي تتخيلها مع جيرد.. عاصفة سرعان ما تخمد لتصبح جزءاً من الماضي بعد أن ترحل هي.

هل يمكن أن تكون كذلك؟ هل تراها تقلق من دون داعٍ؟ أم ستترك حطاماً خلفها؟

قالت:

ـ الأفضل أن ندخل قبل أن تهب.

وحثت الخطى إذ كانت تدرك أن العاصفة ستصل بسرعة.

سألتها ابنتها بلهفة:

ـ هل يمكننا أن نتفرج على العاصفة من الشرفة؟

منذ صغرها ووميض البرق، وما يتبعه من دوي للرعد وهطول للأمطار يفتنها. وخلال فصل الصيف انهمرت الأمطار بغزارة، فقد كان هذا هو الفصل الممطر. وقد رأت أليسيا في ذلك مصدراً للإثارة.

أجابت كريستابل:

ـ أظن ذلك.

وأدركت أن جيرد سيحاول قصارى جهده لإدخال البهجة إلى قلب ابنتها.

وصلتا إلى البوابة الأمامية، فمدّت كريستابل يدها من فوقها لتفتحها من الناحية الأخرى، لكنها شعرت بالقنوط حين عجزت عن تحريكها. تركت يد أليسيا لتستجمع قوّتها، مرددة في نفسها أن هذه العقبة إنما تنبهها إلى ضرورة مغادرتها هذا المكان. فقد كانت البوابة قاسية لا تفتح.

ـ سأفتحها لك!

رفعت بصرها لترى جيرد ينزل من الشرفة ويجتاز الممر المؤدي إلى البوابة.

قال وهو يسرع الخطى نحوهما:

ـ أظنها ازدادت قساوة لأننا لم نحاول فتحها بعد طليها مؤخراً. نحن ندخل في معظم الأحيان من الباب الخلفي.

كان يرتدي قميصاً أبيض، يكشف عن صدره الأسمر المكسو بالشعر الأسود، وسروالاً قصيراً أبيض يبرز ساقيه. قطعت رجولته الصارخة أنفاس كريستابل حتى كادت تنسى أن تسحب يدها وتبتعد عن البوابة ريثما يفتحها لهما. وأثارت رؤيته مشاعرها فشلّ تفكيرها.

كان شعره الكث الداكن مبللاً، وذقنه ناعمة. كما فاح منه عطر ما بعد الحلاقة الأشبه برائحة البحر. ارتسمت على ثغره ابتسامة النصر وهو يفتح البوابة على مصراعيها، ويقول:

ـ تفضلا بالدخول.

أجابته أليسيا، متمسكة بحسن السلوك:

ـ شكراً.

ـ أهلاً وسهلاً بكما.

وأشار إليهما بالدخول، وعيناه تتلألآن وهما تنتقلان من الابنة إلى الوالدة.

ـ لحسن الحظ أنكما وصلتما قبل هبوب العاصفة. كنت على وشك إغلاق ستائر الشرفة.

فقالت أليسيا:

ـ إننا نحب العواصف.

ـ في هذه الحالة، سنترك الستائر مفتوحة حتى يدخل المطر إلى الشرفة.

سارت أليسيا أمامهما، سعيدة لما أبداه من تعاطف معها، بينما انتظرت كريستابل جيرد ليغلق البوابة خلفهما، متلهفة لسماع رأيه في ملابسها المثيرة. لم تجرؤ على السير أمامه، مدركة أن نظراته ستلاحق حركات ردفيها مع كل خطوة تخطوها.. لن يكون السير إلى جانبه سيئاً، على أي حال.

أقفل البوابة والتفت إليها وهو يبتسم لها مرحباً، محاولاً إزالة المخاوف التي أثارها قبولها دعوته، وقال:

ـ تعجبني قلادتك، إنها ملفتة للنظر.

فأجابت قبل أن تستطيع كبح نفسها:

ـ إنها تناسب الثوب.

شعرت بالارتياح عندما لم يخفض بصره إلى ثوبها، إنما نظر إلى عينيها باستحسان قائلاً:

ـ إنك تعرضين موهبتك الخلاقة من جديد، بلمساتك الرائعة المتكاملة.

فبادرته قائلة وهي تشعر بالذنب:

ـ إنني بعيدة جداً عن الكمال، يا جيرد.

أرادت ألا يتوقع منها أشياء قد لا تتمكن من القيام بها.

ـ أوحيت لي بأفكار رائعة حول كيفية عرض لآلئنا، يا كريستابل. عرضت تصاميمك في هونغ كونغ، وقد أثارت الاهتمام من الناحية التجارية أكثر من عرض إنتاجنا بجملته.

خفف سرورها من إحساسها بالذنب، وقالت:

ـ أعطيتك إذن شيئاً قيماً مقابل الوقت الذي أنفقته عليّ.

قطب جبينه ساخراً، وعلّق:

ـ أريد أكثر من ذلك.

حملت نبرته الهادئة معانٍ كثيرة، وحركت فيها مشاعر جعلت قلبها يخفق بسرعة.. إنه يريد المزيد.. وما يريده لا علاقة له باللؤلؤ والعمل.. حدّقت إليه محاولة إخفاء مشاعرها، متسائلة عما إذا كان الأمر يستحق عناء المجازفة.

وتابع جيرد قائلاً:

ـ لا بد أن ذلك يعني شيئاً بالنسبة إليك، بعد أن علمت أن إبداعك أثار الإعجاب.

أوشكت أن تقول:

ـ فعلت ذلك من أجلك.

لكنها لم تفعل، إذ لم تشأ أن ترفع النقاب عن حقيقة مشاعرها فقالت:

ـ أحب وضع التصاميم، يا جيرد. أما ما تفعله بعملي فهذا من شأنك..

ـ لكنك قادرة على بلوغ الشهرة.

فقالت بحذر:

ـ لا أظنك ذكرت اسمي، أليس كذلك؟

فقطب حاجبيه:

ـ كلا، اتفقنا أن تحمل المجوهرات اسم بيكارد. لكنني أريدك أن تنالي حظك من التقدير، يا كريستابل.

هزت رأسها:

ـ لا أريد ذلك، صدقني.

ـ لما لا؟

«لأنهم سيعثرون عليّ».. لكنها تمنعت عن الإجابة، لأن توريطه في مشكلتها لن يحلها. فقالت:

ـ أنا أكثر سعادة هكذا.

ـ إنها مهنة مربحة.

ـ لا أحتاج إلى مهنة.. جل ما أريده هو العيش حرة، يا جيرد. هل يمكنك أن تفهم ذلك؟

وبدا عليها الذعر فوجدت نفسها مرغمة على تبرير نفسها قائلة:

ـ لا أريد الارتباط، أو العيش أسيرة أحد.. لا أريد أن ينظم الآخرون حياتي، فلا تتوقع مني أكثر. لقد حاولت أن أحذرك..

ـ نعم، هذا صحيح. أعتذر لأنني لم أحترم مشاعرك.

هكذا انتهى هذا الانفجار المحموم، فتمتمت بانهزام:

ـ لماذا أنا هنا إذن؟

ـ إنك حيث أردت أن تكوني.

جاء رده غاية في البساطة، وأضاف:

www.elromancia.com

ـ إنسي الآن كل شيء، يا كريستابل. تعالي..

وأشار نحو الشرفة باسماً، وهو يقول:

ـ إنها أمسية واحدة فقط.

أمسية واحد.. إنه محق. لن تمضي معه إلا ساعات قليلة ولن يقدم خلالها على شيء رغماً عنها. كما وأن أليسيا ترافقها.

رفعت بصرها نحو الشرفة، وهي تصعد السلالم بجانب جيرد. كانت أليسيا تثرثر مع امرأة عجوز نحيلة انحنت فوق الطفلة مظهرة اهتمامها بما تقوله.

فقال جيرد:

ـ إنها ڤيكي خان، وربما تريد أن تعلم أين ومتى تقدم لها القريدس بالعسل.

كانت فيكي خان على غرار الكثيرين من الصينيين في بروم، ترتدي سروالاً فضفاضاً من القطن وقميصاً مشقوقاً عند الجانبين. وقد عقدت شعرها من الخلف على شكل كعكة. كانت الابتسامة تعلو وجهها الكثير التجاعيد، مما بعث في قلب أليسيا الارتياح.

وجدت كريستابل، وقد تملكها السرور، موضوعاً عاماً تتحدث فيه، فقالت:

ـ يدهشني أن للصينيين واليابانيين هنا أسماءً غربية.

ـ مضى على وجودهم هنا وقتاً طويلاً، إنهم ذرية الغواصين الذين أموا المنطقة في الأيام الغابرة.

ـ نعم، ولكنهم احتفظوا بالكثير من تقاليدهم، مثل وضع النقود في مقابرهم.

ـ يعود ذلك إلى معتقداتهم القديمة ولكن أسماءهم لها علاقة باختلاطهم بالناس. فقد كان ربابنة مراكب صيد اللؤلؤ يمنحون غواصيهم أسماء غربية ليتمكنوا من تمييزهم.

ـ أرى من غير اللائق فرض حضارة مختلفة على الناس.

ـ ليس الحضارة وإنما الاسم فقط. فالحضارة الصينية مزدهرة في بروم. وأشك في أن تستوعب ڤيكي النقد حول هذا الموضوع، فهي أشبه بملكة النحل في مجتمعها.

أدركت كريستابل أن عمل ڤيكي في منزل بيكارد فضلاً عن تقدمها في السن منحها مركزاً خاصاً بين قومها. رغم أنها لم تتوقع تلك الفطنة التي لمحتها في عيني العجوز وهي تنتصب واقفة بعد إنهاء حديثها مع أليسيا.

شعرت كريستابل بالدم يتصاعد إلى وجنتيها، وعينا العجوز تتفحصانها بدقة.. لعلها تحاول درس مزاياها أيضاً.

بذلت جهداً بالغاً لمتابعة صعود السلالم إلى الشرفة، وقد تصلب ظهرها بشكل آلي وهي تشعر بتلك العينين مسمرتين عليها.

عندها تذكرت كريستابل أول لقاء لها مع «بيرنهارد كروجر» بعد أن تزوجت من ابنه.

هل هي مناسبة؟

هل يمكن صبها في القالب المطلوب؟

هل ستلد كما هو مطلوب منها؟

لم يكن لديها حينها، فكرة عما هي مقدمة عليه، خلافاً لما هو الوضع عليه اليوم. إذ مهما كان نوع شعورها نحو جيرد، فهي مقتنعة تماماً بأنه لا يجدر بها دخول عالمه.

قال جيرد، وهو يعرفهما إلى بعضهما البعض ببساطة:

ـ ڤيكي خان.. كريستابل ڤالدز وابنتها أليسيا، ويبدو أنكما تعارفتما.

انحنت المرأة العجوز:

ـ يشرفني التعرف إليك.

أحنت كريستابل رأسها بأدب:

www.elromancia.com

- الشرف لي. لطف منك أن ترحبي بنا.

رفعت إليها ڤيكي وجهاً باسماً:

- أخبرتني ابنتك بأنها تريد أن تتناول طعامها هنا على الشرفة ليتسنى لها التفرج على العاصفة. ولا أدري إذا كنت تفضلين تناول الطعام في الداخل.

وبعد أن لاحظت كريستابل أن المائدة قد أُعدت على الشرفة، أجابت وقد شعرت بأنها لا تريد دخول هذا المنزل وأنه من الأفضل لها أن تبقى في الخارج لتتمكن من الرحيل بسرعة:

- كلا، المكان هنا ممتاز.

- كما تشائين. وأرجو أن تستمتعوا بالأمسية.

أمسية واحدة فقط.. رددت كريستابل ذلك في نفسها بحزم وهي تنظر إلى المرأة العجوز التي استدارت عائدة إلى الداخل.

انطلق دوي الرعد بقوة من خلفها، وكأنه النفخ في نفير يوم الدينونة، ينذرها بأنها اقترفت خطأ حين قبلت الدعوة. ولكنها أمسية واحدة فقط. وإن احتفظت برزانتها، لن يتأذى أحد.

استجمعت ما لديها من قوة، والتفتت لتواجه جيرد.. والعاصفة.

* * *

٤ - ليلة من العمر

شقّ البرق ظلمة السماء. إنها قوة الطبيعة الثائرة الرهيبة، مصحوبة بقصف الرعد المتتابع. لم تشهد كريستابل عواصف مماثلة في أوروبا. ولكنها تتذكرها خلال طفولتها في البرازيل حين كانت تخلف دماراً هائلاً.

أما أليسيا فكانت ترى في العواصف عرضاً سحرياً.. فراحت تشير إلى وميض البرق صارخة بابتهاج:

- أنظروا.. أنظروا!

ثم تصفق بيديها لتضيف:

- آه، تلك كانت كبيرة جداً.

ضحك جيرد، مسروراً بابتهاجها، بينما راح يلعب دور المضيف بمهارة، فيسكب لهما العصير، ويمرر طبق المكسرات والبسكويت. فوجدت كريستابل نفسها شاردة الذهن أمام سحر هذا الرجل.

ناولها كوباً من العصير وهو يسألها بظرف عما إذا كانت تفضل نوعاً آخر من العصير الذي أعدته ڤيكي. فأخذت الكوب منه حتى لا يحضر لها شراباً آخر، ويقف ثانية بقربها مثيراً فيها مشاعر لا تقاوم.

جلس إلى المائدة قبالتها، تاركاً الكرسي الذي بينهما لأليسيا. كانت الفتاة الصغيرة تتنقل بين المائدة حيث تأكل البسكويت وتشرب العصير بابتهاج وسرور، وبين قمة السلالم حيث تتفرج على العاصفة.

كانت المائدة بسيطة للغاية. يتوسطها طبق خاص، فيه العيدان التي

www.elromancia.com

يستعملها الصينيون لتناول الطعام، فضلاً عن أدوات المائدة التقليدية الأخرى، فيما لو كانت الضيفتان لا تحسنان استعمال العيدان. أما مناديل المائدة فمن الكتان الجيد، والكؤوس من البلور الفاخر.

رفع جيرد كأسه وعيناه السوداوان تحدقان بها:

ـ ما أجمل أن تكوني هنا!

أحنت رأسها تعبث بكأسها، وأجابت:

ـ لا أظنك تشعر حقاً بالوحدة، يا جيرد.

ـ ثمة أماكن شاغرة في حياتي. ماذا عنك؟

فهزت كتفيها:

ـ لا يمكنك أن تجعلها مملوءة دائماً.

ـ ليتني أستطيع أن أملأ بعضها.

ـ بشكل مؤقت؟

ـ إن كانت الضرورة تستدعي ذلك.

ـ ربما يصبح المكان الخالي أوسع فيما بعد.

ـ علينا أن نفكر باللحظة الحالية.. قد أموت غداً.

فردت بحدة وجفاء:

ـ هذا أمر بعيد الاحتمال.

ألقى نظرة على العاصفة التي كانت في أوجها، وقال:

ـ مات أبي عندما ضربت صاعقة طائرته، وهو يركبها في بروم.

صدمت كريستابل من كلامه، وقالت:

ـ آسفة، لم أكن أعلم.

اشتبكت نظراتهما بقوة، وقال لها:

ـ ما من أحد يعرف متى تحين ساعته، يا كريستابل.. أنا أؤمن بأن على المرء أن يستغل كل ثانية من عمره.

لم يكن زوجها يتوقع أن يموت باكراً، أو حتى قبل أبيه. كان لورنس

يأمل أن يرث المال والسلطة وقد امتثل لرغبة والده بالزواج والإنجاب. إلا أنه استغل (كل ثانية من عمره) مع كل امرأة أعجبته وأشبع رغباته كلها. وكانت كريستابل ترى تصرفه هذا أنانياً للغاية.

لم تلحظ أن وجهها تقلص من مرارة الذكريات إلا بعد أن سألها جيرد:

ـ بماذا تفكرين؟

أسبلت أهدابها لتخفي التعابير البادية في عينيها وهي تجيب:

ـ مات زوجي أيضاً في حادث اصطدام زورق بخاري سريع.

أخذت ترتشف شرابها آملة أن تغير الموضوع، إذ ما كان عليها أن تتحدث عن زوجها بهذه الصراحة. فقد شغل حادث اصطدام الزورق السريع وسائل الإعلام في كافة أنحاء العالم.

ـ متى حدث ذلك؟

طرح سؤاله بنبرة تنم عن عطف أثار سخريتها، فهي لم تبك يوماً لورنس. فبعد أن ازداد وزنها نتيجة الحمل لم يعد زوجها يرغب بها، كما أن سوء تصرفاته قتل في قلبها كل المشاعر التي كانت تكنها له.

أجابته بفتور، متفادية الإدلاء بالتاريخ الحقيقي:

ـ كنت حاملاً في شهري الثامن.

حاول أن يزن كلامها في ذهنه قبل أن يقول لها ببطء:

ـ لم تر أليسيا أباها إذن؟

فأجابت بتحدٍ:

ـ لا أظنها تشعر بفراغ من هذه الناحية.

فقال متسائلاً:

ـ هل تمثلين أنت كل ما تحتاج إليه؟

ـ إننا نتفق معاً.

ـ وهل هي كل ما تحتاجينه، يا كريستابل؟

www.elromancia.com

أجابت بعفوية متجاهلة ما سبق وتحدث عنه حول الأماكن الشاغرة التي ينبغي ملؤها:

ـ إنها كل ما أملك.

ها هو أمامها مستعد لإرضائها. وشعرت كريستابل، بإغراء يدفعها إلى فتح قلبها..

كانت مستغرقة في أفكارها عندما ظهرت فيكي خان، حاملة الطعام إلى الشرفة. نادت أليسيا لتجلس في مكانها، وأشعلت قنديلاً معلقاً فوق المائدة، ثم وضعت طبق القريدس بالعسل، وطبق الأرز المطهي بالبخار. وقالت لكريستابل:

ـ لقد طهيت طعاماً يزيد عن حاجة الصغيرة، لتتمكنا من مشاركتها فيه.

ـ شكراً.. يبدو لذيذاً جداً.

فابتسمت لهم فيكي:

ـ هنيئاً.

كانت فيكي طاهية ممتازة دون أدنى شك؛ إذ لم تذق كريستابل في حياتها طعاماً ألذ مما قدمته. حتى أليسيا نسيت العاصفة لانهماكها بتناول الطعام بيديها، مؤكدة أن طعمه ألذ بهذه الطريقة، ووافقها جيرد الرأي على الفور.

منذ تقديم طبق القريدس بالعسل، وكريستابل تتساءل في قرارة نفسها عن سبب اختفاء نظرة الاتهام من عيني فيكي خان. وبالرغم من أنها لم تشعر برضى العجوز الصينية إلا أنها وافقت ضمنياً على وجودها مع جيرد حتى أبدت تسامحاً مع ابنتها.

أخذت أليسيا، أثناء تناولها الطعام، تثرثر مع جيرد، مستمتعة بمزاحه معها. فلم تستطع كريستابل أن تمنع نفسها من التفكير بأنه سيكون أباً جيداً، لأن اهتمامه البالغ يشعر أي طفل بأنه محبوب وذو

شأن.

حملتها أفكارها تلك إلى لورنس الذي كان سيعهد أمر العناية بابنته للمربيات ليُنسى لاحقاً وجودها.

فابنته كانت حجته في وضع حد للعلاقة الحميمة التي كانت تربطه بزوجته.. أثارت هذه الأفكار في نفسها رغبة قوية بأن يشعرها جيرد بأنها محبوبة ومميزة لديه.

أدار بصره نحوها وكأنه أحس غريزياً بمشاعرها. ومهما كانت التعابير التي رآها في عينيها، إلا أن الدم بدأ يغلي في عروقه، كدليل على المشاعر المتبادلة بينهما. وعلى الرغم من المخاوف التي انتابتها، لم تستطع أن تحوّل نظرها عن الرجل الذي يخفق له قلبها بطريقة غريبة.

نعم..

لم ينطق جيرد بهذه الكلمة، إلا أنها كانت ترن في أذنيها، مثيرة في كيانها مشاعر تفوق المنطق أو العقل.

هب الهواء من خلفها، فتطايرت خصلات شعرها. ودوى الرعد فوقهم بقوة أجفلتها، فيما نظرات جيرد تهز كيانها.

عادت ڤيكي خان إلى الشرفة، فراحت أليسيا تثرثر معها. وبما أن يدي أليسيا متسختان أخذتها ڤيكي إلى المطبخ لتغسلهما لها. وقبل أن تتواريا، قالت فيكي له:

ـ من الأفضل أن تغلق الستائر من الناحية الجنوبية يا جيرد حتى لا يدخل المطر إلى الشرفة.

وقف جيرد، طويلاً وسيماً نابض الرجولة، فحرّك منظره مشاعرها وأرغمها على الاعتراف بأن ثمة أشياء لا يمكن صدها، كقطرات المطر التي تهطل بغزارة على السطح. نفخت الرياح جانبي قميصه المفتوح، فتألق جلده الأسمر في ضوء القنديل.

تمتم من دون أن يحرك ساكناً:

ـ الستائر.

فأدركت أنه وقع بدوره تحت سحرها ولم يشأ التحرر منه.

ـ سأساعدك.

تلفظت بهذه الكلمة من دون أن تعي ذلك. فأجابها قائلاً:

ـ تعالي معي.

رافقته وقلبها يخفق بشدة، وكلاهما يعي جيداً الأحاسيس المتبادلة التي تحركه.

كانت الستائر مفتوحة ومثبتةً بحبال معدنية، فتعاونا على فكها وإنزالها ثم تثبيتها بمزلاج ليتأكدا من إغلاقها جيداً. هبت الرياح حاملة معها قطرات المطر فبللتها.

وقف جيرد قريباً جداً منها.. وتغلغل عطره في مسام جلدها. فلم تستطع الابتعاد عنه فيما تسارعت أنفاسها. جر جيرد الستارة إلى الأسفل ليقيهما الريح والمطر فاكتنفتهما الظلمة.. ظلمة دافئة شاعرية.

حاولت كبت مشاعرها الثائرة التي حثتها على أن تستغل الظلمة لتكتشف ما تريد معرفته.. وما تتشوّق إليه.

كان جيرد يتنفس بعمق يكشف عن توتر لا يمكنه احتماله.. وإذ التفت إليها شعرت بالتوتر وهي تنتظر عناقه، فلا شك أنها تستحق أن تزيل الحواجز التي أقامتها.

ضمني إليك.. توسلت إليه بصمت.. ضمني إليك..

فلبى رغبتها وضمها إليه بيدٍ، بينما تغلغلت يده الأخرى في شعرها ولف خصلاته على أصابعه القوية. ثم عانقها بعاطفة محمومة كادت تفقدها صوابها. واستمتعت كريستابل بكل لحظة من عناقه. يا إلهي! ما هذه الأحاسيس التي يشعلها فيها هذا الرجل.

كانت يداها تعبثان بشعره، دافعة نشوة هذا العناق إلى الاستمرار. وكم كان سرورها عظيماً وهي ترى مدى انسجامه معها.. ولهفته إليها.

ـ إبقي معي هذه الليلة.

همس بهذه الكلمات التي كانت تنبض برغبتهما المحمومة، وأثار بذلك اضطراباً مؤقتاً إذ قاطع تلك اللهفة الصامتة.

ألحّ عليها مكرراً:

ـ إبقي.. يمكن أن تنام أليسيا هنا.

أليسيا! أين..؟ وتنبهت فجأة إلى أنها ذهبت مع ڤيكي خان لتغسل يديها.

ـ أنت تريدين ذلك أيضاً، يا كريستابل.

لم تستطع النكران. وتمنت لو أنه لم يتكلم.. تمنت لو أنهما بقيا متعانقين.. ولكن الوقت داهمها.. وهذا ما كان يعنيه، أليسيا.. وڤيكي خان تحضران الطبق التالي..

كم من الوقت مضى عليهما؟

رفع رأسه قائلاً:

ـ انظري إليّ!

كانت عيناه كجمرتين متقدتين. سحب يده من شعرها وأخذ يلامس وجنتها برقة، ثم قال بلهجة مغرية:

ـ كلانا ينجذب إلى الآخر، وهذا ليس خطأً. لا أظن أن العاصفة ستسمح لكما بالخروج فلمَ لا تبقين الليلة هنا!

ـ أقبل البقاء عندك، لا معك.

قالت ذلك، وقد دفعتها قوة أعنف من أن يتصورها جيرد، إلى الهروب من نفسها ومن الرجل الذي ملك قلبها.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ عينا النمرة

قطعا عناقهما لأنهما لم يعودا وحيدين، ولكن كريستابل فقدت الإحساس بكونها مجرد أم أو ضيفة.

بدا غريباً أن تعود إلى الجلوس على المائدة وكأن شيئاً لم يكن، وتحاول إخفاء الأحاسيس التي ما زالت تتملكها بينما خرجت فيكي خان بعربة الطعام مثقلة بالطبق الثاني. تبعتها أليسيا حاملة علبة المثلجات بالشيكولاتة وقفزت نحو جيرد تشكره على ما أحضره لها خصيصاً.

لم تستطع كريستابل رفع بصرها عن جيرد. أما زال قلبه يخفق بقوة كما يخفق قلبها الآن؟ لكن مظهره وهو جالس أمامها على المائدة لا يوحي بذلك.

ـ يبدو الطبق شهياً كالعادة، يا فيكي.

راح يجامل المرأة الصينية العجوز التي كانت تضع أمامهم طبق السمك والخضار المسلوقة.

قالت أليسيا لأمها باهتمام:

ـ تحتفظ فيكي بعيدان من الخيزران لطهي السمك، يا ماما، لقد أرتني أشياء كثيرة غريبة. فالمطبخ كبير جداً، إنه أكبر من غرفتنا كلها.

أجابت كريستابل بغموض، وهي تنظر إلى ابنتها التي كانت تلتهم المثلجات:

ـ هذا جيد.

ـ ولدى فيكي أيضاً مجموعة من الأصداف، قالت إنها ستريني إياها عندما تنتهي من الطهي.

ـ هذا حسن.

سمعت كريستابل نفسها تردد ذلك قبل أن ترغم نفسها على التركيز على كلام ابنتها. فالتفتت إلى فيكي خان التي كانت تسكب الطعام، وقالت:

ـ شكراً لمنحك وقتاً لأليسيا.

ـ لا بأس. يسرني أن أراها دوماً سعيدة.

ـ نعم.

قال جيرد لابنتها برقة مفرطة:

ـ ستبقى والدتك هنا إلى ما بعد موعد نومك يا أليسيا. عندما تنتهين من التفرج على مجموعة الأصداف ستجد لك فيكي غرفة.

حملقت أليسيا فيه بدهشة، وقالت:

ـ غرفة لي؟ ولكن أين ستنامين أنت، يا ماما؟

فأجابت:

ـ معك يا حبيبتي. إنما هنا في منزل جيرد.

وامتلأ قلبها بهجة بهذه الحقيقة. لن ترى الليلة أحلاماً مزعجة لأنها ستكون تحت حماية رجل من لحم ودم، مليء قوةً ودفئاً.

قالت لها فيكي خان مشجعة:

ـ هل نذهب لنرى الغرفة؟

ـ نعم.

صرخت بلهفة، وقد أسعدهاالتجول في أرجاء المنزل برفقة المرأة العجوز.

ذهبتا معاً، تاركتين جيرد وكريستابل يتناولان العشاء وحدهما.

عندما نظرت إليه، تذكرت كيف تغلغلت أصابعها في شعره الكثيف

www.elromancia.com

وهو يعانقها.

كان السمك شهياً، وكذلك الخضار والمرق، ولم تستطع استعمال العيدان الصينية في تناول الطعام، فاستعملت الشوكة. لكنها أخذت تنظر إلى جيرد وهو يأكل بها بمهارة تامة من دون أن يفلت منها شيء.

يعجبها كل شيء فيه. لقد أحبت كل ما عرفته عن جيرد كينغ، ويوماً بعد يوماً تزداد معرفتها به. ولكنها يوماً ما ستقفل على تلك المعلومات في صندوق الذكريات وتحتفظ بها إلى الأبد.

وضع جيرد العيدان جانباً، وأشار إلى صحنها الخالي قائلاً:

ـ هل أعجبك؟

أجابت بعفوية بالغة، من دون أن تحاول انتقاء كلماتها:

ـ إنه رائع.

ابتسم راضياً وقد اتكأ إلى الخلف ليراقبها وهي تنهي ما تبقى في صحنها. فأخذت كريستابل تتساءل عما يدور في خلده وهي تأكل. تسارعت نبضات قلبها وهي تضع شوكتها وتتناول كوب العصير.

نظرت إليه وهي ترشف شرابها، شاعرة بالاضطراب من نظراته.

قال وهو ينهض واقفاً دون انتظار جوابها:

ـ هل نغادر المائدة ونستمتع بالمطر المنعش؟

فأجفلت لقوله هذا وسألته:

ـ أتعني.. أن نخرج تحت المطر؟

وكان المطر يهطل بغزارة بالرغم من سكون البرق والرعد، مما يهدد بابتلالهما في لحظات.

ـ لا. سنجلس إلى حافة الشرفة.

ولوى شفتيه مازحاً وهو يسير نحوها، ثم أضاف:

ـ لم أعد أحتمل أن تفصل بيننا المائدة.

ـ آه!

وازدادت لهفتها إليه وهو يتقدم ليقف خلف كرسيها. قبّل قمة شعرها وهو يتمتم:

ـ أحضري كوبك إذا أردت.

كان الكوب في يدها، فوقفت ملبية طلبه من دون تفكير، وقد جذبها إليه كالمغناطيس. وضع ذراعه حول خصرها ثم سار بها بعيداً عن الضوء نحو البقعة التي تلفها الظلمة.

كان الهواء منعشاً، فقد تراجعت حدة الحر واستقر الغبار. ولكن السماء كانت ملبدة بالغيوم، ولا يظهر فيها القمر أو النجوم. في الأسفل كانت الأمواج تتكسر على الصخور، إلا أن اهتمامها كان مركزاً على ذراع جيرد التي احاطت بخصرها، وهو يقف خلفها.

ثم أحاطها بذراعيه واضعاً خده على شعرها وهو يتمتم هامساً:

ـ لقد أبعدتني عنك زمناً طويلاً. وأريد أن أتأكد الآن من أنني لا أحلم.

فهمست:

ـ نعم.

ـ أريد أن أتنشق عطر شعرك.. أشعر به. أتذوقه.

أغمضت عينيها حالمة، مركزة على أحاسيسها.

ـ أريد أن أعلم، يا كريستابل.. أريد أن أعلم أنك تحبينني بقدر ما أحبك.

هزت العاطفة المحمومة في صوته كيانها، فقالت تطمئنه:

ـ نعم.. نعم أحبك.

ـ كنت في السابق كالزئبق. ولكن عليك أن تتغيري. فلا أريدك أن تتلاعبي بمشاعري وترحلي.

تتلاعب بمشاعره؟ تملكها شعور بالذنب، أهذا ما توحي به وحسب؟

www.elromancia.com

ليتها تعترف له بما يخالجها من مشاعر تجاهه.

انحنى وضمها بين ذراعيه، بينما رفعت يديها تعبث بشعره. ولكن الأصوات التي وصلت إليهما من الردهة سمرتهما مكانهما. أفلتها جيرد، وابتعد عنها وعاد يتكىء إلى الدرابزين. راح يتأملها بشكل عفوي وهما ينتظران اللتين قاطعتا خلوتهما، وتنبهت كريستابل إلى أنها كانت تمسك بكوبها طوال الوقت من دون أن تعي ذلك، مما أثار استغرابها.

تمتم يقول:

ـ إنك أجمل امرأة رأيتها في حياتي. وأريدك بقربي أكثر من أي شيء آخر في حياتي.

ارتجفت لما لمسته من عاطفة في صوته، ثم تملكها خوف مفاجئ من أن يضغط عليها في ما بعد ليطالب بالمزيد، فقالت:

ـ إنك عزيز على قلبي. ولكن أرجوك أن تفهم..

ضغط بإصبعه على شفتيها، مانعاً إياها من التفوه بالمزيد.

ـ أعلم أن لديك طفلة، وماضياً تخفينه عني. فلا داعٍ لأن ترددي ذلك على مسمعي يا كريستابل.

فقالت ضارعة:

ـ أنا لا أريد أن تكون حياتي بهذا الشكل، يا جيرد. وإنما هي حياتي ولا حيلة لي بذلك.

فأومأ قائلاً:

ـ أريد منك أن تعلمي بأنني أقدّرك كثيراً.

يقدرني.. ما أجمله من تعبير! إن قوله هذا يبعث البهجة والسرور إلى قلبها.

ـ ماما.. احزري ما أريد أن أخبرك به.

شعرت كريستابل بالتمزق وهي تلتفت لتواجه الطفلة التي لن تكون ابنة جيرد أبداً. كانت أليسيا أسيرة لميراثها، ولن يتمكن أحد، ولا حتى

أمها من تحريرها من قبضته على المدى الطويل، فحياتهما معاً، مقيدتان به. وتذمرت كريستابل في قرارة نفسها من حظهما السيء. ولكنها كانت تعي أن ابنتها ضحية هذا الوضع، فحاولت أن تكتم موجة الاستياء البالغ وتبتسم للطفلة التي كانت الآن تدور حول المائدة وتساعد المرأة العجوز في تنظيفها.

ـ ما الذي عليّ أن أحزره، يا أليسيا؟

ـ ليس عليك أن تحكي لي حكاية هذه الليلة، لأن فيكي وعدتني بأن تفعل. ستروي لي حكاية التنين.

ـ هذا جميل.

أجابت فيكي خان تطمئنها:

ـ سأضع الصغيرة في السرير ولن أتركها قبل أن تغفو.

ـ هذا لطف منك.

ـ بكل سرور.

ـ أشكرك على العشاء اللذيذ.

قالت ذلك متأخرة، وهي تتساءل عن مقدار ما تعرفه المرأة العجوز.

ـ تركت لك القليل من المثلجات يا ماما.

ـ لا، أكلت ما فيه الكفاية، يا أليسيا.

ـ سأصنع القهوة بنفسي، يا فيكي. وشكراً لكل شيء.

ألقت عليه المرأة العجوز نظرة ذكية وهي تنهي تنظيف المائدة:

ـ سأترككما إذن.

وبعد أن وضعت الأطباق على عربة الطعام، التفتت إلى أليسيا باسمة:

ـ قولي تصبحين على خير لماما. إذ لدينا أشياء كثيرة نفعلها.

فقالت أليسيا بلهفة:

ـ نعم. هذا صحيح. تصبحين على خير يا ماما.

www.elromancia.com

ثم ركضت إليها لتحتضنها وتقبلها.

قال جيرد مازحاً وهو يتقدم نحو أليسيا:

ـ ألن تقبليني أيضاً قبلة المساء؟

أخذت أليسيا تضحك ثم مالت إليه تطبع قبلة على خده، من دون أدنى تردد. وأثار هذا استغراب كريستابل، إذ بالرغم من أن جيرد لم يكن غريباً بالنسبة إلى ابنتها، إلا أنها لم تعتد أن تتصرف بمثل هذه الإلفة مع أي رجل آخر. هل هو ميل طبيعي؟ أم حب وثقة غريزية؟ كانت كريستابل تعي جيداً أن ما من مستقبل لها مع جيرد كينغ.. ولا داعي للتساؤل عن مدى طيبته وحسن معاملته لطفلة يتيمة الأب.

قالت تستعجل ابنتها:

ـ هيا اذهبي. سآتي لآخذك.

ـ سأكون في غرفة الأصداف، يا ماما.

فقال جيرد يطمئنها:

ـ سأريها أنا الغرفة.

ـ تصبحان على خير.

قالت ڤيكي ذلك وهي تنحني باحترام قبل أن تعود إلى المنزل، وأليسيا تسألها عن التنين.

وما أكثر الوحوش التي ينبغي بها محاربتها، كما أخذت كريستابل تفكر في قرارة نفسها وقد سيطر عليها الحزن. كان المال لعنة.. لعنة مشؤومة، ولا قدرة لها هي على التخلص منها، ولطالما حثتها على التساؤل إن كان حادث اصطدام القارب عملاً تخريبياً؟

مات لورنس، ثم مات والده بورم خبيث لا علاج له.. ولم يعد أحد يسأل عما سيفعله رجال المال بثروة كروجر. فالوريثة الوحيدة هي طفلة يمكن السيطرة عليها، بالقوة أو بالحيلة، أو حتى التخلص منها إن دعت الضرورة.

وارتجفت كريستابل.

وإذا بذراع تلتف حول كتفيها:

ـ إنها في أمان مع ڤيكي.

آمنة؟ لن تكونا في أمان حتى وإن جند لهما جيشاً من الحرس! ثم أي حياة هذه؟ محبوستان في قفص من ذهب، لا تثقان في أحد لا سيما في وجود هذه الأموال الطائلة.

تنهدت لتطرد ما تشعر به من ضيق، مصممة على ألا تدع شيئاً يفسد عليها سهرتها.

ـ أصبحنا الآن وحيدين.

ورفعت ذراعيها تحيطان بعنقه وتشدانه إليها وهي تقول باسمة:

ـ أريد أن أعانقك أنا أيضاً.

* * *

عينا النمرة تبتسمان له..

كاد يطير فرحاً ويداها تضمانه، وأحس بمشاعر بدائية تتفاعل في كيانها، مشاعر تكاد تكون وحشية.

لقد اتخذت قرارها.

أتراها تمضي في اصطياد فريستها بقلب نمرة، فتنقض عليها بسرعة، وتلتهمها، ثم تمضي وقد أشبعت روحها؟

لا! وشعر بالسخط وبالرغبة في الاحتجاج، ستمضي السهرة على طريقته!

أخذت تعانقه بشوق ولهفة فسمرته في مكانه. وكان عليه أن يضبط نفسه، كي لا يتعدى الحدود التي رسمها لنفسه.

كاد يفقد صوابه وقد أشعلت مشاعره الجياشة، وراح قلبه يخفق بشدة، بينما اندفعت تعانقه.

عليه أن يوقفها عند هذا الحد.

www.elromancia.com

في الحال!

أمسك بها ورفعها إليه يعانقها، فعانقته بدورها، وراحت تمرر أصابعها في شعره وتبادله عواطفه المحمومة بشكل كاد يفقده السيطرة على نفسه. رفع رأسه ليلتقط أنفاسه، كانت عيناها كالكهرمان المتجمد وفمها مفتوحاً. أدرك فجأة أنها تتصرف بوحي غريزتها وأحاسيسها التي دفعتها إلى التشنج.

ـ كريستابل...

نطق باسمها برقة بددت تلك النظرة من عينيها، فرفعت بصرها إليه بتوسّل التوى له قلبه. راح يلامس خدها بيده برقة متناهية:

ـ أريد أن أحبك.. وأن تحبيني.

فسألته بلهفة:

ـ وهل أخطأت في تصرفاتي؟

أدرك عندها إنها لم تعتد التصرف على هذا النحو، ولهفتها تلك إنما هي وليدة يقظة مشاعر لم تكن تعرف كيف تواجهها وتسيطر عليه. مشاعر فاقت هذه الليلة كل القوى الخفية الأخرى في حياتها.

أي نوع من الرجال ذاك الذي تزوجته فأفقدها ثقتها بنفسها إلى هذا الحد؟

طرد تلك التساؤلات من رأسه، إذ جلّ ما يهمه هو أنه لم تخالج قلبها مشاعر مماثلة إزاء رجل آخر. ولكن سروره لم يطل لأنه رآها فجأة تبتعد عنه وكأنها تريد إغلاق الباب بينهما.. ثم سمعها تقول:

ـ جيرد..

انطلق اسمه من أعماقها محملاً بالمشاعر الجياشة التي كانت تحاول السيطرة عليها.. إنه الرجل الوحيد الذي أحبته ومع ذلك لن تستطيع المضي معه.

ـ جيرد.. أرجوك.. لا أستطيع.. لا أستطيع.

اكفهرت عيناه فجأة وكأن ماء بارداً وقع على رأسه:

ـ ما هذا؟ أتتلاعبين بي؟

نظرت إليه بتوسل ليفهم. عادت تكرّر:

ـ أرجوك، لا أستطيع.

ـ لماذا كريستابل؟ لماذا؟

كانت عيناها تتوسلان:

ـ امهلني بعض الوقت.

في هذه اللحظات. لم تدر ماذا تفعل أو تقول. فهي لا تريد إلا الهرب منه. إذ لن تستطيع أبداً أن تكون له. فهذا خطر.. خطر عليه.

كان يرى توسل عينيها وذعرها. فرق قلبه لها.. فمم تخاف هذه المرأة؟ ولماذا تضع كل هذه الحواجز بينها وبين هذا العالم؟ انتزع نفسه من تلك المشاعر الجيّاشة التي عصفت به وحاول السيطرة على ذاته فهو لا يريد أن يراها على هذا القدر من الذعر والتردد، قال:

ـ حسناً. حسناً. لن أطالبك الآن بشيء ولكني لن أستطيع الانتظار إلى الأبد. فهل تفهمين؟

لزمت عيناها الصمت المطبق وكأنها تخبىء أفكارها لنفسها.

كان شعرها المتموج الأسود لامعاً، وبشرتها متألقة كالعسل الصافي. لكنه لم ير أثراً لتلك النمرة التي كان يحلم بها، إذ بدا أنها توارت منه.

فدفعه هذا للتساؤل.. ما الذي زعزع ثقتها بنفسها؟ قال لها:

ـ حسناً. اذهبي الآن لتستريحي. سأرسل وراء ڤيكي لترشدك إلى غرفة ابنتك.

وذهبت تاركة إياه في ظلام من المشاعر السوداء.

لكنها قالت بصوت أبح قبل أن تخرج:

ـ أتعرف بحق أنك ملك الأحاسيس؟.

سألها وقد حيّره هذا اللقب:

ـ هل هذه هي فكرتك عني حقاً؟

ـ إنها تظهر في عينيك. في لمساتك.. منذ الليلة الأولى التي جئت فيها إلى السوق، بدا السرور عليك وأنت تمرّر أصابعك على مجوهراتي المعروضة، وعندما نظرت إليّ...

وتنهدت..

ـ لقد سرّني النظر إليك، يا كريستابل. وأنا لم أكتفِ بعد، خاصة وأنا أراك ترفضينني.

بعد ذهابها، تمدّد جيرد في فراشه وقد جافاه النوم ولكنه لم يخطر له قط أن المرأة التي يحبها بهذا الجنون لن تكون موجودة عندما يستيقظ. لم يخطر بباله قط أنه، عندما ينبلج الفجر، سترحل كريستابل.

لكنه لم يفهم.. لم يستطع أن يفهم.. لماذا تهرب منه!

* * *

٦ ـ ظل الميت يعود

ما الذي حصل؟

كان جيرد يبذل جهداً ليصحو من سباته العميق، فقد جافاه النوم حتى وقت متأخر من الليل.

نهض مسرعاً وإذ بضوء النهار يبهره. قال بينه وبين نفسه: سأذهب لأتفقد كريستابل! كم الساعة الآن؟

تحولت عيناه إلى الساعة ظناً منه أنها مضبوطة على السابعة. ولكنها كانت التاسعة إلا عشر دقائق.

نهض ليلقي نظرة عليها، ويحاول إقامة علاقة طيبة مع ابنتها. دخل حمامه الخاص ليستحم ويحلق ذقنه.

شعر بالانزعاج.. وفتح خزانة ثيابه ليخرج عباءته ويرتديها بسرعة، ويتجه إلى غرفة الأصداف حيث تنام كريستابل وابنتها وقلبه يخفق. لم تكن كريستابل هناك. ولا حتى أليسيا.

توجه إلى المطبخ، فوجد ڤيكي خان تزن كمية من حبوب القهوة. سألها دون مقدمات:

ـ متى غادرتا المنزل؟

ـ عند الفجر.

أجابت بذلك وهي تنظر إليه بعينين متفهمتين لمشاعره.

ـ هل تكلمت معها؟

www.elromancia.com

ـ لا. سمعت صوت سيارتها. لم يكن من شأني أن أمنعها، يا جيرد.

فهز رأسه قائلاً بكآبة:

ـ وما كانت لتمتنع عن الذهاب، في شتى الأحوال. لقد انتهت سهرتنا على المسار الذي أرادته، ولا شيء تغيّر بالنسبة إليها.. لا شيء.

قالت ڤيكي تذكره:

ـ اليوم هو الإثنين، يا جيرد، وعلى الطفلة أن تذهب إلى المدرسة.

ـ لو كان هذا ما يقلق كريستابل، لأخبرتني.

أومأت ڤيكي دون جدل، مدركة أنه أدرى منها.

ـ تحمل تلك المرأة أعباءً كثيرة، ولا تعرف معنى الحرية.

وأضاف في نفسه قائلاً:

ـ كادت تفتح لي قلبها البارحة ولكنها لم تفعل.

قالت ڤيكي بهدوء:

ـ لا يمكنك أن تكبح شعورها بالمسؤولية، يا جيرد.

ـ لكنني لا أعرف من هي!

ـ ألم تتحدث عن الموضوع؟

ـ لا.. طوال فترة معرفتي بها...

فأكملت المرأة:

ـ بقيت حريصة على الابتعاد عنك.. نعم، لقد لاحظت ذلك الليلة الماضية. كنت مخطئة باعتقادي أنها تتلاعب بك، إنها تنجذب إليك، ولكن..

فسألها مقطباً:

ـ ولكن ماذا؟

فهزت كتفيها:

ـ عليك أن تعرف السبب. هذا كل ما أستطيع قوله. ورثت الفتاة الطيبة عن أمها، ولكن هذه الأخيرة بنت حولها جداراً قوياً من الاستقامة

لا يمكن خرقه. أظنها تفعل دوماً ما تعتقد أنه صواب.

كان اجتماعهما معاً صواباً. كيف أمكنها أن تدير ظهرها للمشاعر التي تجمعهما؟ كيف استطاعت ذلك؟ لعلها لم تفعل. على الطفلة أن تذهب إلى المدرسة، وهي إلى المكتب. لقد حدد معها موعداً للاجتماع قبل ذهابه إلى هونغ كونغ، ليريها صور معرض المجوهرات الخاص بتصاميمها لشركة بيكارد للؤلؤ، على أن يتداولا لاحقاً بمسألة مجموعة التصاميم الجديدة. ليلة أمس، لم تحاول بحث قضايا العمل، كما لم ترَ الصور لأنه لم يحضرها معه الليلة الماضية. وفي حال جاءت اليوم لتراه في المكتب بعد ذهاب ابنتها إلى المدرسة، فذلك يعني أنه أخطأ في تفسير مغادرتها منزله عند الفجر.

لقد صدم عند اكتشافه رحيلها، ولكن كان عليه أن ينتبه إلى ذلك منذ تقوقعت على نفسها ليلة أمس وبنت سدّاً بينهما. لا ينبغي له أن يعظم الأمور. إذ أن ڤيكي خان البالغة الذكاء تقول إن كريستابل لا تفعل إلا ما تعتقده صواباً.

فتمتم:

ـ إنني أُعظّم الأمر.

رفعت ڤيكي حاجبيها متسائلة، فابتسم لها ابتسامة ساخرة وقال:

ـ الحق معك، إنه يوم دراسي، كما أنه يوم عمل بالنسبة لي.

ـ الفطور؟

ـ نعم، شكراً.

ثم استدار ليذهب إلى الحمام.

ـ ستعود أمك اليوم.

فقال دون أن يلتفت:

ـ إنها آتية إذن.

قلما يهمه رأي والدته بكريستابل، وبإمكانهما هي وڤيكي، أن تظنا

ما تشاءانه عن علاقتهما. فهو يعلم جيداً أن أمه ستحتفظ برأيها إلى أن يسألها عنه وهو لا ينوي أن يفعل.

لم تخبره ڤيكي بشيء لا يعرفه، وأمه لا تملك معلومات إضافية، والشخص الوحيد الذي بإمكانه أن يخبره بما يريد معرفته هو كريستابل نفسها. ومنذ وقت طويل، بدأت تحدّثه عن الأعباء التي تحملها.

الظل الثقيل الذي ألقاه عليها زوجها الميت.. خوفها من رجل يرتدي بذلة.

هل خف تأثير هذين العبئين بعد اكتشافهما حبهما العاصف؟

من المؤكد أنها ستكون أكثر استعداداً للتحدث معه على سجيتها عندما يجتمعان هذا الصباح. فقد اكتسب ثقتها الليلة الماضية.. بل ربح قلبها ذلك..

لم تأتِ عند الساعة الحادية عشرة كما اتفقا مسبقاً. كانت الصور منثورة فوق مكتبه جاهزة لتراها كريستابل. ولكن الدقائق كانت تمر بسرعة وجيرد ينتظر وينتظر سدىً، وأعصابه تزداد توتراً والأفكار القديمة تعود إلى ذهنه.

تذكر الصمت الذي أغلقت به عينيها.

سمع طرقة على بابه بعثت فيه الأمل. لقد وصلت متأخرة قليلاً، ولكن..

ودخلت أمه.

فجلس على كرسيه خائب الأمل.

سألته:

ـ كيف كانت رحلتك؟

استجمع طاقته ليظهر لها بعض الحماسة:

ـ عظيمة.

ثم أدرك أنها أمضت عطلة نهاية الأسبوع مع أسرة كونيللي، تخطط

لعرس سامنتا كونيللي وأخيه تومي.. بعد قصة حب دامت طويلاً، فشعر بغصة وهو يسألها:

ـ هل اتفقتم على العرس؟

ـ لقد استقر أمرهم على أن يقيموه في «كانانورا».

ثم تقدمت نحو مكتبه وسألته:

ـ هل هذه صور تصاميم كريستابل؟

ـ نعم. وقد رحب بها تجار هونغ كونغ جداً.

أمعنت النظر في الصور وقالت:

ـ تبدو رائعة فعلاً. كنت محقاً بشأن موهبتها، يا جيرد.

ورفعت إليه بصرها، فسمره الذكاء الحاد في عينيها القائمتين، وقالت:

ـ هل ستقدم لنا المزيد من أعمالها؟

فابتسم ساخراً:

ـ ومن يمكنه التكهن بالنسبة لكريستابل؟

ـ إنها مشروعك، يا جيرد.

فهز كتفيه:

ـ كنت أنوي التفاوض معها على اتفاقية جديدة هذا الصباح. لكنها لم تأت.. بعد.

ـ وإن لم تأت؟

ـ ليس لدي الحق في تنظيم وقتها، تعلمين هذا. فالخيار خيارها.

ـ ألم يتغير شيء؟

أدرك أنها تلمح إلى الليلة الماضية، فلا بد أنها عرجت على البيت بعد عودتها إلى بروم، وغيرت ملابسها قبل الحضور إلى هنا. وفيكي لا تخفي شيئاً عن أمه.

فأجاب بحزم رافضاً الإفصاح لها عن أموره الشخصية:

ـ كلا، ليس بالنسبة إلى هذا الموضوع.

اضطربت نظراتها والتوت شفتاها ساخطة، ولكنها ما لبثت أن تداركت الأمر. أحس بانزعاجها، وعدم رضاها عن علاقته بكريستابل فالدز إذ أن غموضها لا يوحي بالارتياح، وكان جيرد يفهم شعورها جيداً، ولكن ذلك لن يمنعه عما يريده، فثمة أشياء لا يمكن منعها.

قالت بابتسامة صغيرة:

ـ حسناً، مررت بك لألقي عليك التحية، يجب أن أذهب لأرى بريدي، وسنناقش عمل هونغ كونغ بعد الغداء.

فقال موافقاً:

ـ لا بأس.

نظر إلى أمه وهي تخرج. كانت تتميز بمشيتها المهيبة، ومكانتها المرموقة في كمبرلي... وبالرغم من أن أليزابيت بيكارد كينغ قد بلغت الثانية والستين من عمرها، إلا أن لا شيء يدل على سنها الحقيقي سوى شعرها الأبيض، الذي يبدو مذهلاً وهو يحيط بوجهها الخالي نسبياً من التجاعيد.. ذاك الوجه الجميل الملفت للنظر الذي تضيئه عينان تشعان قوة.

كان جيرد يحب أمه ويقدرها. ولعل والده ترك تأثيراً أكبر على حياة أخويه اللذين يكبرانه سناً، خصوصاً ناثان، الابن الأكبر الذي كان أسطورة في عهده، في إدارة مزرعة «جنة كينغ» الكبرى، كما كان رجال «كينغ» من قبله.

وبالرغم من الحب والاحترام اللذين كان يكنهما لوالده إلا أنه لم يرغب قط في أن يمشي على خطاه، إما لأنه الأصغر سناً بين اخوته، وإما لانجذابه إلى مؤسسة بيكارد لصناعة اللؤلؤ. فلطالما شعر بميل إلى أمه أكثر منه إلى أبيه، لأنها كانت فريدة من نوعها بالنسبة إليه.

في الوقت الحالي، عليه أن يجد تبريرات منطقية لقرارات كريستابل،

ومع أنه كان ينوي فتح الموضوع معها هذا الصباح، إلا أنها حرمته من ذلك. ربما دفعتها قوة المشاعر التي تبادلاها ليلة البارحة إلى الهرب خوفاً من أن يطالبها بالمزيد، مهدداً استقلاليتها التي تحرص عليها.

كان جيرد واثقاً من عدم نجاحه في ذلك. وإن كانت تشعر بالعجز، فسيترك لها حرية التصرف، ولا بد أن تشتاق إليه، بقدر اشتياقه إليها، جلّ ما عليه أن يفعله هو ترك الباب مفتوحاً لها لتدخل ساعة تشاء.

عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، رفع سماعة التليفون وطلب رقماً في «مركز عربات شاطىء المدينة»، فأجابه المدير برايان غالو واي.. وكان رجلاً ضخم الجثة، ذا صوت هادر، محبوباً من الجميع.

ـ برايان، معك جيرد كينغ.

ـ كيف يسعني خدمتك؟

ـ كنت أتوقع حضور كريستابل فالدز إلى مركز بيكارد الرئيسي، هذا الصباح. لكنها لم تأت في موعدها، هل يمكنني ترك خبر لها معك لتتصل بي عندما تشاء وتحدد موعداً آخر؟

ـ بكل تأكيد. دع الأمر لي، سأحرص على إبلاغ السيدة الصغيرة بذلك.

ـ شكراً يا برايان، إنه أمر هام.

ـ لا بأس. سأقوم بذلك في أقرب وقت ممكن.

ـ شكراً جزيلاً.

في الأمس أبدت اهتماماً بالصور، بغية إرضاء فضولها بالنسبة إلى عرض تصاميمها، ولا يعقل أن يشكل اجتماع عمل تهديداً لها.

وماذا بعد ذلك؟

هل يمسك بها ويجبسها معه في المكتب؟ هل يشعرها بضرورة الاعتراف بالسبب الذي يحول دون جمع شملهما؟ عليه أن يجد ما يستطيع محاربته، حتى يحارب لآخر لحظة من عمره، فكريستابل هي المرأة التي

يريد.. وبعد ليلة البارحة بات لديه كل الحق ليحارب من أجلها، إن سمحت له بذلك.

بدأت أعصابه تهدأ تدريجياً، وقبل في قرارة نفسه التحدي العقلي الذي كانت تمثله على الدوام. لقد نجحت طريقته من قبل حين منحها بعضاً من الوقت والحرية، وسيعاود الكرة قبل أن يذهب للبحث عنها. ولكنه كان يتلهف لرؤيتها وقد بدأ صبره ينفذ.

كم سيمنحها من الوقت؟ إلى أن يتحول انتظاره جحيماً.

* * *

لم تتصل به عصر ذاك اليوم.

ولا صباح الثلاثاء.

وعند نهاية اليوم التالي، فقد جيرد السيطرة على شعوره بالإحباط من صمت كريستابل، إذ عليها الإيفاء بمواعيد العمل.. ولن يكلفها الاتصال به شيئاً.

إن كانت قد استلمت رسالته.

رفع سماعة الهاتف واتصل ببرايان مرة أخرى، سأله وهو يبذل جهده للحفاظ على رباطة جأشه:

ـ معك جيرد كينغ يا برايان، هل أبلغت رسالتي إلى كريستابل ڤالدز؟

ـ نعم، أبلغتها إياها أمس بعد عودتها مع ابنتها من المدرسة.

ـ آه.. شكراً.

ـ كانت غائبة طوال النهار، ولعلها لم تتمكن من الاتصال بك. لكنها الآن في بيتها، أتريدني أن أتصل بها مذكراً؟

ـ لا، لا. هذا يكفي. أردت فقط أن أتأكد من وصول الرسالة، شكراً لك يا برايان.

إنها الآن في منزلها.. فلما لا يتوجه إلى ساحل المدينة و.. ولكن

ماذا يسعه القول أو الفعل أمام أليسيا؟ عليه أن ينتظر كريستابل لتأتي بنفسها إليه، فهو لن يحقق مراده إن لم يمنحها القليل من الوقت.

ولا شك أن مغادرتها البيت ليومين متتاليين، خلال وجود أليسيا في المدرسة، هو خير دليل على أنها تتجنب أي زيارة شخصية منه. لعلها بحاجة إلى بعض الوقت، لإعادة تقييم الوضع، وهو يأمل أن تصل إلى قرار إيجابي لا سلبي.

الأربعاء..

كان قد مضى على وجوده في المكتب قرابة الساعة، عندما تذكر أن أليسيا أخبرته عن رحلة مدرسية إلى مرصد الطيور يوم الأربعاء، وهذا يعني، طبعاً، أن كريستابل قد رافقتها. إذ تستدعى الأمهات عادة للمساعدة في الإشراف على مثل هذه الرحلات.

كان يعبث بالأوراق الموضوعة أمامه على المكتب، منتظراً اتصالاً من غير المحتمل وصوله، فخطر له أن يقوم بخطوة هجومية. نهض وتوجه إلى مكتب أمه، وأطل رأسه من الباب ثم قال:

ـ سأذهب إلى مصنع اللؤلؤ، للاطمئنان إلى سير عمليات الغوص، لأعود بعد الغداء.

أومأت برأسها بعد أن لاحظت عزوفه عن الكلام. بعد حوالى نصف ساعة، كان في طريقه إلى «باي رود» خارج بروم، آملاً أن يتمكن من صرف ذهنه عن مشكلته. لم يكن يتوقع منها اتصالاً إلا أنه قطب جبينه عندما سمع هاتف السيارة يرن. فالتقط السماعة مدركاً أن المتصل ليس كريستابل لأنها لا تعرف رقمه.

ـ جيرد كينغ.

جاءه صوت أمه:

ـ جيرد.. في مكتبي رجال يسألون عن كريستابل ڤالدز.

اضطربت أعصابه بيقظة بالغة، فداس على المكابح ليوقف السيارة،

وقد تضاربت في رأسه كل الاحتمالات. سألها:

ـ هل يرتدون بذلات؟

ـ نعم.

ـ من أين هم قادمون؟

ـ فهمت أن السيد «سانتيسو» والسيد «فوجيل» والسيد «ويسمان» أتوا بالطائرة من أوروبا ليتحدثوا إلى كريستابل، وهم يحاولون العثور عليها، فأخبرهم «برايان غالوواي» عن علاقتها بمؤسستنا، وقال لهم إنها ربما اتصلت بك اليوم.

رجال من أوروبا! تبين له من خلال لهجة أمه الجادة أنها تتعامل مع شخصيات نافذة، هل هذا ظل زوج كريستابل الميت؟

فأجاب كاذباً:

ـ نعم، لقد اتصلت بي. وسأجتمع بها، بعد ساعة.

عليه أن يصل إليها قبل الرجال ذوي البذلات.

ـ في مصنع اللؤلؤ؟

سألته أمه بنعومة مدركة أن لا سبيل لهم للوصول إليها قبله، حتى وإن كان يقول الحقيقة:

ـ نعم، أتوقع أن تعود كريستابل إلى بروم بعد ظهر اليوم لتصحب ابنتها من المدرسة. وعلى أي حال، إذا شاؤوا أن يتركوا لها خبراً...؟

سمع أمه تردد لهم كلامه وتستطرد قائلة:

ـ لن يتركوا خبراً يا جيرد.. شكراً لمعلوماتك.

لم يشاؤوا أن يتركوا لها خبراً ليتسنى لهم أن يأخذوا أليسيا رهينة إلى أن تعود كريستابل إلى بروم.

ـ «سانتيسو»، «فوجيل»، «ويسمان»..

أخذ يتلو أسماءهم ليحفظها في ذاكرته بينما كان يستدير بالسيارة عائداً إلى بروم بأسرع ما يمكنه. كان مرصد الطيور على بعد ثمانية عشر

كيلومتراً في الطرف الآخر للمدينة، وتضرع إلى الله أن تكون كريستابل هناك مع ابنتها.

كان يسابق الوقت، ويدرك ذلك جيداً.

فكريستابل تخاف من رجال يرتدون البذلات ولا بد أن تختاره هو.

* * *

www.elromancia.com

٧ ـ الفرار نحو المجهول

أثار شرح المعلمة عن أصناف الطيور وطريقة عيشها دهشة كريستابل، بالرغم من أنها لم تكن تحفظ أسماءها. ركزت انتباهها على كل تفصيل تسمعه ومع ذلك لم تستطع صرف جيرد من ذهنها وهو يستعجلها كل يوم لاتخاذ القرار الذي عليها مواجهته.

هل تبقى أم ترحل.. تبقى أم ترحل.. تبقى أم ترحل.. كانت تتعذب وقلبها يتحرق شوقاً إليه. لم يكن باستطاعتها ترك جيرد معلقاً بهذا الشكل، إذ ينبغي أن تتخذ قراراً، وليس من العدل أن تستمر بتجنبه أو حتى بمعاملته بجفاء.

لم تندم على تلك السهرة معه، فهي أجمل ليلة قضتها في حياتها، ويمكنها أن تعيش على ذكراها زمناً طويلاً. لكنها لم تكن تريد العيش على الذكريات. فلهفتها إلى حبه كانت حافزها للاستمرار في الحياة، إلى أن تأخذ الأمور مجراها الطبيعي.

أترى هذا ما يغريها للبقاء هنا، للتمسك بكونها مجرد امرأة عاشقة لجيرد كينغ؟ هل من الممكن أن تعيش، هي وأليسيا، حياة طبيعية، من دون أن يتقيدا بذلك الإرث الذي أفسد حياتهما؟ لم يعثروا عليها حتى الآن ولكنهم سيفعلون عاجلاً أم آجلاً.

كم كانت تتوق إلى قضاء مزيد من الوقت مع جيرد، حتى تزدهر العلاقة بينهما. حبذا لو أنهما يرحلان معاً، إلى أن تتغير الأوضاع ويصبح

العبء الذي يثقلها أخف وأقل أهمية.

أثارت انتباهها رفرفة سرب من العصافير من خلفها.. كانت الطيور تطير حرة.. فهل هذا فأل حسن؟ أخذت تتساءل وقد انبعث الأمل من جديد في نفسها، إلا أن قلبها قفز خافقاً بعنف وقد تنبهت إلى أن الطيور أجفلت عند رؤيتها رجلاً يتقدم بسرعة نحو مجموعة التلامذة.. وكان الرجل جيرد كينغ.

لم ينتظر قرارها. جاء يبحث عنها بصفتها امرأته.

كانت غريزتها تنبؤها بذلك، تسمرت مكانها وقد راودتها ذكرى ما حصل فشعرت بالخوف من العواقب، والبهجة التي تكاد تفقدها صوابها. ما كان عليه أن يحضر إلى هنا، ولكنه هنا.. هنا.. هنا.. وبالرغم من المسافة التي كانت تفصل بينهما فاضت منه طاقة غريبة أسرتها فلم تقوَ على تحويل عينيها عنه.

كان يرتدي ملابس العمل.. قميصاً وسروالاً قصيراً رياضيين، وجوربين طويلين، وحذاءً رياضياً، فأدركت أنه لم يرتد تلك الملابس ليتنزه بها في مرصد الطيور. لقد جاء من العمل، عازماً على عدم قبول رفضها، فتملكها الذعر. لقد سرقت سهرة من عمره.. هل بإمكانها الاستمرار في سرقة المزيد من وقته من دون أن تستحق عقاباً صارماً؟

ـ كريستابل...

هتف باسمها بلهجة آمرة، وهو يشير لها بالابتعاد عن المجموعة. أرغمتها اللهفة البادية في عينيه القاتمتين على إطاعته، بالرغم من أن عقلها حذرها من الخطر. حاولت أن تستجمع وسائل دفاعها وهي تتقدم نحوه وقد وقف بعيداً عن مسمع الأطفال. إلا أنها لم تكن تتحلى بالقوة الكافية لتتحمل وقع كلماته.

ـ ماذا تعني الأسماء هذه لك؟ سانتيسو، قوجيل، ويسمان؟

توقف قلبها عن الخفقان، لقد جاؤوا. لقد أمضت هنا وقتاً طويلاً،

فتمكنوا من العثور عليها.

انطلق الاسم من فمها بخوف وهي تلتفت للبحث عن ابنتها:

ـ أليسيا.

أمسك جيرد بها مانعاً إياها من الإقدام على أي حركة وقال:

ـ إنها قرب معلمتها. لا أحد من أولئك الرجال يعرف مكانكما.. قلت لهم إن أليسيا في المدرسة وأنت في مصنع اللؤلؤ معي، لقد منحتك وقتاً كافياً لتدارك الوضع.

نظرت إليه وقد قدرت تفهمه للأمر.

ـ أين هم؟

ألقت عليه هذا السؤال، محاولة التغلب على الذعر الذي تملكها.

ـ كنت في طريقي إلى مصنع اللؤلؤ عندما اتصلت بي أمي لتخبرني عن وجودهم في مكتبها، فقلت لها إنك ستجتمعين بي هناك.

ـ لماذا ورطت نفسك في الموضوع؟

صرخت بذلك وقد هالها تدخله شخصياً، إذ لم تكن تبغي أبداً أن يحوّل جيرد انتباه رافائيل سانتيسو إليه. فهذا ما منعها من... ولكن الأوان قد فات. حاولت أن تشرح له الوضع، وقد بدا عليها الأسى.

ـ إنك لا تعلم..

فقاطعها بحذر:

ـ أعلم أنك خائفة منهم، وهاربة منهم يا كريستابل. لا أدري منذ متى وأنت هاربة، ولكن هذا هو سبب وجودك هنا، أليس كذلك؟ بدت لك سواحل أستراليا المقفرة آمنة.

تمتمت بمرارة:

ـ ليس هناك مكان آمن.

لقد انتهت.. علاقتها بجيرد، قضي عليها في مهدها.

ـ بلى.

كان تأكيده ذلك، مجرد كلمات لا معنى لها في واقع الحياة القاسي.

هزت رأسها بيأس:

ـ أظنهم سيبذلون جهدهم، هذه المرة، حتى لا أفلت من جديد.

ـ سنقوم بذلك في الحال، إذهبي وأحضري أليسيا وأخبري المعلمة أنكما سترافقانني.

هزتها النبرة العدوانية في صوته، فصرخت:

ـ لا يمكنني أن أدعك تتورّط، يكفي أن..

فردّ عليها بعنف:

ـ لكنني متورط.

فقالت تجادله بنفس العنف:

ـ لا حاجة لذلك. يمكنك أن تقول إنني لم أحضر إلى موعدنا في المصنع. لن أقحمك في الموضوع، يا جيرد.

ـ لن أبتعد عنك، خصوصاً وأنت في هذا المأزق الذي أستطيع إنقاذك منه.

ونظر إليها بعينين ملتهبتين بعزيمة ثابتة وقال:

ـ جئت إلى هنا في الحافلة، وإن عدتما فيها إلى بروم سيعثرون عليكما. يمكنني أن آخذكما إلى مكان آمن، حتى يتسنى لك أن تقرري ما تريدين القيام به.

سرها أن ينفخ في قلبها الأمل، لأن كل ما فيها يخشى العودة إليهم وإلى الحياة المخيفة التي سيفرضونها عليهما هي وأليسيا. لقد منحها جيرد بعض الوقت لدراسة الوضع، وعليها استغلاله جيداً، فإن تأجيل ما لا مفر منه، أفضل من الإذعان.

ـ إلى أين يمكننا الذهاب؟ فهذه الطريق تؤدي إلى بروم.

أجاب وهو يخرج هاتفه الخليوي من جيبه:

ـ إلى المطار، سأتصل بشركة كينغ للطيران وأطلب تجهيز طائرة لنا.

www.elromancia.com

ـ طيران كينغ..

إنها شركة استئجار الطائرات التي يملكها أخوه «تومي». طبعاً! يمكنها هي وأليسيا، الذهاب إلى أيّ مكان تريدانه، وتغطية دور جيرد في هربهما. فإن كان أخوه يملك الشركة لا يعني بالضرورة أنها استأجرتها من أسرة كينغ بشكل خاص.

قالت بسخرية عنيفة:

ـ يمكنني أن أدفع أجرة الطائرة، الشيء الوحيد الذي لا ينقصني هو المال.

ـ هذا حسن! أحضري أليسيا وسنرحل على الفور.

تركته يتحدث على الهاتف الخلوي، مطمئنة إلى أن بإمكانه استئجار الطائرة حالاً، إذ لم تشك أبداً بقدرته على معالجة الوضع. فقد كان متحمساً جداً لاصطحابها وابنتها، إلى مكان آمن.. وتركت نفسها تأمل في أن يحدث هذا حقاً.

عندما اقتربت من المعلمة، كان ذهنها مشغولاً بأمور كثيرة.. فالنقود التي خبأتها في بطانة حقيبة يدها تكفي لأخذهما إلى أيّ مكان تريدانه، ولشراء كافة حاجياتهما إلى أن تتمكن من سحب مبلغ إضافي من صندوق التوفير في سيدني. يمكنها ترك سيارتها الصغيرة والعربة، والأفضل ألا تستعملهما بعد اليوم..

تعاطفت المعلمة معها وهي تعتذر لتركهما المجموعة زاعمة بأن عليها أن تأخذ أليسيا لتقابل أناساً وصلوا إلى بروم بشكل غير متوقع. وقد أرادت من خلال ذلك أن تخفي دور جيرد في هربهما.

راحت أليسيا تطرح أسئلة أكثر غرابة:

ـ لماذا لا يمكننا البقاء، يا ماما؟

كانت نصف باكية وأمها تأخذها بيدها وتجرها من بين رفاقها.

ـ علينا أن نذهب.

ـ ولكننا كنا سنتناول الطعام على الشاطىء.

ـ سيصطحبنا جيرد إلى مكان أفضل.

ـ إلى أين؟

ـ إنها مفاجأة.

ـ لا أريد مفاجأة، أحب أن أبقى هنا.

ـ لا تجادليني يا أليسيا، إننا ذاهبتان مع جيرد وكفى.

فتجهمت مستاءة.

فقالت أمها تعنفها:

ـ لا تظهري استياءك أمام جيرد، إنه طيب جداً معنا.

تنهدت باستسلام، وإذ بوجهها يتألق فجأة:

ـ هل سنذهب إلى بيته مرة أخرى؟

ـ سنرى.

عند اقترابهما من جيرد، كان يعيد هاتفه الخليوي إلى جيبه. أومأ إلى كريستابل يطمئنها، ثم ابتسم لأليسيا بظرفه المعتاد، وقال:

ـ آسف لأخذك من بين رفاقك ولكن لدي شيء خاص لك.

فأشرق وجهها فضولاً:

ـ وما هو؟

ـ حسناً...

وأخذ بيدها الأخرى مسرعاً نحو السيارة، وهو يقول:

ـ بدلاً من التفرج على الطيور، أظنك تفضلين أن تحلقي في السماء كالعصفورة.

فصاحت وقد تملكتها الإثارة:

ـ أتعني في طائرة؟

ـ نعم، طائرة صغيرة، سترين الأرض من فوق.

راح جيرد يثرثر مع أليسيا، شارحاً لها عن الأمكنة المختلفة التي

يمكنها رؤيتها من الجوّ، في حين كانت كريستابل تفكر في الجهة التي سيقصدونها غافلة عن العلاقة التي توطدت بين ابنتها وجيرد.

كانت «بيرث» و«داروين» مدينتين كبيرتين جداً، ويمكنهما الاختباء فيهما لبعض الوقت.. ولكن رافائيل سانتيسو سيقصدهما دون شك، فإن قطع كل تلك المسافة ليضعهما تحت سيطرته من جديد، لن يثنيه شيء عن البحث عنهما حتى يجدهما. أما مدينة «أليس سبرينغس» الواقعة في أواسط أوستراليا، فمن الصعب أن يبحث عنهما فيها.

تذكرت فجأة أن القطار الشهير «ألغان»، ينطلق إلى مدينة «أديليد» في جنوب أستراليا، ولا يحتاج المسافر على متنه إلى إبراز هويته عند قطع تذكرة السفر، ويمكنها بالتالي إخفاء أثرها بالنسبة لمن يقتفيه.

بعد أن استقر رأيها، عادت بأفكارها إلى رافائيل سانتيسو، الأرجنتيني الذي ترأس فرع مجموعة شركات «كروجر» في أميركا الجنوبية. فبعد موت لورنس تحرك بسرعة بالغة للوصول إلى مركز أعلى، متحايلاً لاكتساب ثقة برنارد كروجر ودعمه، بغية الإمساك بزمام السلطة بعد موته. لم تثق كريستابل به قط، فهو الشخص الذي استفاد أكثر من غيره من مقتل زوجها بحادث الإصطدام المريع.

نظرت إلى جيرد بقلق، لأنه لا يدرك ما كان يواجه، فإن مد لها يد العون أحبط مصالح بالغة الأهمية. كان قلبها يتمزق لاضطرارها إلى ترك هذا الرجل وإبعاده عن حياتها، هذا الرجل الرائع الذي جعلها ترى الحياة من منظار بهي، رغم أنها لن تعود كذلك، بعد الآن، بالنسبة إليهما.

فإن أمضت معه المزيد من الوقت وضعت كل عزيز لديه في خطر. ومهما بلغ نفوذه ستسحقه مؤسسة كروجر لبلوغ مرادها. عليها، أن تجد وسيلة لإبعاد جيرد عن مشاكلها بسلام.

عندما وصلوا إلى موقف السيارات واستقروا في سيارته الرانج روفر، كانت كريستابل جاهزة لعرض خطتها عليه. جلست أليسيا في المقعد

الخلفي، تاركة لها حرية الاستئثار به لبعض الوقت. وعندما انطلقت السيارة باتجاه بروم، أخبرته أنها تريد أن تجنبه المتاعب التي قد تتأتى عن مساعدته لها على الهرب.

ـ بالنسبة إلى ما قلته لأمك عن اجتماعنا في مصنع اللؤلؤ.. كيف تنوي أن تبرر لها ذلك، يا جيرد؟

فألقى عليها نظرة جانبية هازلة:

ـ ليس عليّ أن أبرر لها شيئاً، يا كريستابل.

ـ قلت لي ذات مرة إن ثمة أشياء لا يمكن صدها. يمكنك أن تعتبر «سانتيسو» من هذا النوع.

فتجهم وجهه:

ـ أخبريني لماذا تخافين منه إلى هذا الحد.

تجاهلت سؤاله، واستطردت قائلة:

ـ يمكنك القول إنني اتصلت بك لاحقاً وألغيت اجتماعنا في مصنع اللؤلؤ، بسبب رحلة التلاميذ. ويمكنك الادعاء إنّني قطعت المكالمة بسرعة قبل أن تتمكن من إبلاغي عن.. عن الأشخاص الذين طلبوا رؤيتي، فجئت إلى مرصد الطيور لتخبرني بالأمر وتوصلني معك إلى المدينة. أظنها قصة محبوكة جيداً.

قال بشيء من السخط وهو يسخر من محاولتها تغطية تورطه معها:

ـ لست بحاجة إلى هذه القصة. ما أريده هو معرفة حقيقة هؤلاء الرجال وعلاقتهم بك؟

فقالت بلهفة:

ـ هذا ليس مهماً.. المهم هو أن تبقى بعيداً عن الموضوع.

ـ بعيداً عن ماذا، يا كريستابل؟

فهزت رأسها:

ـ إصغ إليّ، من فضلك، يا جيرد. إن ذلك لمصلحتك.. صدقني،

عندما نصل إلى بروم، يمكنك أن تنزلنا حيث تركت سيارتي قرب المدرسة، سأقودها إلى المطار وأنجز كل شيء في مكتب طيران كينغ. بتلك الطريقة لن تكون لك صلة بـ.. بهربي.

سألها مقطباً جبينه:

ـ هل أنت خائفة عليّ؟

أغمضت عينيها إزاء نبرته التي يشوبها الشك وقالت متوسلة:

ـ أرجوك، قم بما أطلبه منك، يا جيرد.

بقي صامتاً فترة طويلة، مما زاد عذابها، فأصيبت بالتوتر ولم تتمكن من كبت مشاعرها التي كانت تغلي في أعماقها. فتوسلت إليه أن يوافق على أن يحرر نفسه منها ومن أليسيا.

فقال آمراً باقتضاب:

ـ أعطيني مفاتيح سيارتك.

حملقت فيه غير مصدقة:

ـ ماذا؟

فكرر قوله:

ـ أريد مفاتيح سيارتك، سأتولى ركنها خارج مكتب «طيران كينغ» بعد صعودك إلى الطائرة، وسيؤكد هذا الأمر قصتك، إن كان ذلك يريحك.

ـ ولكن..

فنظر إليها بطرف عينه مضيفاً:

ـ جلّ ما يريحني هو أن أراك، وأليسيا، في الطائرة وأدرك أنك أصبحت خارج قبضة الرجال الذين تخشينهم. لن أنزلك من هذه السيارة قبل أن نصل إلى المطار. نفذي إذن ما طلبته منك وسلميني مفاتيح سيارتك.

اعترفت في قرارة نفسها بأن خطته هي الأنسب لتفادي مصادفة

الرجال الذين تريد تجنبهم، وشعرت بالارتياح لموافقته على قصتها، فأخذت تبحث في حقيبتها عن المفاتيح، وقالت له وهي تسلمه إياها:

ـ تأكد من ترك المفاتيح في السيارة.

ـ لا أحتاج إلا إلى مفتاح السيارة.

ـ لن أستعملها ثانية، لأنني لن أعود، يا جيرد.

ـ أتريدين أن تتركي كل شيء خلفك؟

ـ نعم.

ـ بما فيهم أنا؟

احمرت عيناه من الغضب، فقد آلمه أن تدير ظهرها لكل ما يجمعهما. وكادت لبرهة أن تستسلم للحنين الذي تملكها، وأرادت أن تمسك بيده.. وتتمرغ في حنانه، وتتكئ على قوته، وتخبره بأن لا أحد أثار فيها تلك المشاعر، وأنها تتمنى لو تبقى بقربه إلى الأبد.

اغرورقت عيناها بالدموع، فحوّلت نظراتها بعيداً، وتنفست بعمق مرغمة نفسها على الرد عليه بما أملى عليها ضميرها، لتجنبه كل ما قد يدمر حياته ويدفعه في نهاية المطاف إلى أن يلعنها لتوريطه.

ـ لا مستقبل لنا معاً.

قالت كل ما عندها، ولا داعي للإسهاب، إذ أن التعبير عن مشاعرها قد يحثّه على الإصرار على الوقوف إلى جانبها وهذا ما لن تسمح به. فالأفضل أن تظهر أمامه باردة، قاسية القلب حتى يدعها وشأنها، غير آسف عليها.

لم تحاول النظر إليه، وصممت على ألا تترك له الفرصة لوضع نهاية مختلفة لهذه المواجهة العاصفة. كان جيرد كينغ رجلاً طيب القلب ولا تريد أن يصاب بمكروه بسببها، لذا حري بها أن تترك في نفسه أثراً سلبياً تجاهها.

كان من المفترض أن تشعر بالارتياح عند وصولهم إلى ضاحية بروم،

www.elromancia.com

وهي تدرك أنهما سينفصلان قريباً. لكن الغريب أن هذه الحقيقة زادت من ألمها. تملكها الحزن الشديد فبعد دقائق قليلة سيصبح جيرد مجرد ذكرى.. شعرت برغبة جارفة في أن تشبع عينيها منه وتطبع تفاصيله في ذهنها. لم يكن لديها صورة له، وجلّ ما ستحتفظ به هو الذكريات التي ستلازمها إلى الأبد.

ولكن إن نظرت إليه سيلاحظ ذلك ويشعر بما يخالج قلبها، فهو بالغ الفطنة والحساسية تجاه تغيرات مزاجها. لم تجرؤ على النظر إليه فشبكت يديها وهي تحاول أن تقاوم بقوة الرغبة الملحة بتلطيف موقفها الذي صممت عليه، مذكرة نفسها بأن هذا لمصلحته هو.. وفي سبيل مصلحته، عليها أن تكتفي بذكرى سهرة واحدة معه.

اتجهت سيارته إلى الطريق المؤدي إلى المطار. ألقت نظرة سريعة على أليسيا في المقعد الخلفي بعد أن انتبهت إلى أنها، طوال الرحلة، كانت هادئة تماماً، فأدركت أنها استغرقت في النوم بعد أن أرهقها السير طويلاً في مرصد الطيور. وشعرت كريستابل بالقلق على الطفلة ذات السنوات الخمس، متسائلة إلى متى تستطيع إبقاء هذه الطفلة الصغيرة البريئة في مأمن عن القوى التي لا ترى فيها سوى إرثها.

قاد جيرد السيارة إلى مكتب «طيران كينغ»، وكانت الطائرة الصغيرة متوقفة على المدرج جاهزة للانطلاق. وفي محاولة منها لاختصار مشهد الوداع، أخذت كريستابل تقول بسرعة:

ـ سأصطحب أليسيا إلى الطائرة ريثما تبلغ الطيار بأننا قد وصلنا.

فقال بحزم:

ـ إنها نائمة. سأحملها إلى الطائرة وأطمئن عليكما.

وافقت وقد رأت أن طريقته قد تكون أسهل إذ تجنبها أسئلة أليسيا عندما تستيقظ.

أطفأ محرك السيارة، وغادراها مسرعين، دون أن يتفوها بكلمة.

فمهما كان رأيه في قرارها، فضل الاحتفاظ به لنفسه، وقد سرها ذلك.

سارا إلى الطائرة بصمت كان ينبض بكل ما لم يتحدثا عنه بعد. وإذ رآهما أحد موظفي الشركة، خرج مسرعاً ليفتح لهما باب الطائرة. ثم ساعد كريستابل على الصعود ووقف جانباً ليدخل جيرد حاملاً أليسيا ويضعها على مقعد بجانب أمها.

عندما سحبت كريستابل ذراعيها من حول ابنتها، أمسكت بيده تتلمسه لآخر مرة، وهي تقول بصوت أجش:

ـ شكراً على كل ما فعلته يا جيرد.

لوى شفتيه وهو يقول:

ـ بكل سرور.

ولكنها لم تلمح في عينيه نظرة تنم عن سروره بل عن كآبته، فارتجفت وقد شعرت أن سفرها هذا في السر، غاية في القساوة لأنه سيقضي على كل ما جمعهما.

قال لها وهو يجذب يده من يدها ليسوّي مسند المقعد الأمامي:

ـ أحكمي ربط الأحزمة، فالطائرة ستقلع بعد خمس دقائق.

أغلق الباب، ثم سار عائداً إلى المكتب مع الموظف. تركها بشكل مفاجىء فلم يتسنَ لها أن تذكره بإحضار سيارتها إلى المطار، ولكنها طمأنت نفسها بأنه لن ينسى ذلك رغم أنه لا يريد أن يتذكر شيئاً عنها.

جلست، وقد تملكها الحزن، تنتظر حضور الطيار. كانت تشعر بضيق في صدرها، وتقاوم دموعها. ولكنها حبستها وهي تنتظر التعليمات المتعلقة بالمكان الذي سيقصدونه، وقررت أن تستسلم لأحزانها بعد أن تقلع الطائرة.

تصلب جسمها وهي ترى جيرد يعود إلى الطائرة وحده.. هل من مشكلة؟ أو تأخير؟ لم تفهم قصده حتى وهو يتوجه إلى الجانب الآخر للطائرة ثم يصعد إلى مقعد القيادة مغلقاً الباب خلفه.

سألته بصوت متهدج:

ـ هل من مشكلة؟

فأجاب وهو يدير مفتاح المحرك:

ـ ليس هناك ما يتعذر تسويته.

فتملكها الخوف والارتباك، وتلعثمت:

ـ جيرد.. لا يمكنك أن..

ـ هذه طائرتي يا كريستابل، وسأصطحبك إلى مكان آمن حسب وعدي.

ـ لكنك وافقت..

ـ سيحضرون سيارتك إلى المطار ليوفروا علينا الوقت، وفي وقت لاحق ستتدبر أمي أمر زائريك.

أصيبت بالذعر، إذ شعرت بأنه يورط عائلته في هذا المأزق.

ـ لا تدرك أمك طبيعة الأشخاص الذين تتعامل معهم.

ـ لا يهم، فهي تعرف أنني سأصحبك إلى مكان لا يمكن لأحد الوصول إليه.. مكان يسود فيه قانون أبي «لاكلان» فحسب.. إننا نتصرف من منطلق قوة، يا كريستابل، القوة التي تنبع من سواحل أستراليا المقفرة.

فصرخت به:

ـ إنك لا تفهم حيلهم...

رد عليها بحدة، من دون أن يأبه لاحتجاجها:

ـ ولا هم يفهمون حيلنا.

قالت متوسلة:

ـ أرجوك.. أرجوك أن تصغي إلي، أنت لا تعرف من تعادي.

ـ لكنني سأعرف، يا كريستابل. إما منهم وإما منك.

سمعت في صوته نبرة قاسية.. وأدركت ما كان يخفيه خلف نظراته

الكئيبة، فجيرد لا ينوي أن يدعها تذهب قبل أن يعرف كل ما يريد معرفته.

قال وهو يقود الطائرة:

ـ من الأفضل أن تستقري في مكانك مرتاحة.

قالت باستسلام كئيب:

ـ أي مكان تحسبهم لا يستطيعون الوصول إلينا فيه؟

ـ جنة كينغ.. سنذهب إلى هناك يا كريستابل، سيتولى تومي مراقبة الطريق الجوي بينما يحرس ناثان الأرض. لا أحد يمكنه أن يدخل إلى «جنة كينغ» دون علمنا، وإن فعل، فبشروطنا.

كان بالغ الثقة بنفسه. ربما هذا صحيح، فقد حظي ملوك كمبرلي بمركز أسطوري بعد أن حكموا منطقتهم مئة عام. هل كانوا يتحصنون في ذلك القصر الريفي البالغ الفخامة، الذي مرت عليه أجيال وأجيال من هذه الأسرة المرتبطة بتلك الأرض البدائية الصلبة؟

بدائية.. علقت هذه الكلمة بذهنها، بالرغم من صبغة جيرد الحضارية، فهو ينحدر من سلالة رائدة.. سلالة كافح أفرادها في سبيل الدفاع عن أملاكهم. فعانوا وتحملوا شتى أنواع المحن حتى نالوا أخيراً حصتهم من النجاح والازدهار.

تذكرت السكان الأصليين في عرس ناثان وهم ينادون الأرواح على وقع قرع الطبول، وتذكرت ذاك الشعور بأبدية الأرض، والمسافات التي تحبط الهمة.. تذكرت القوة التي لا تتحطم والمجسّدة في ناثان وأخويه وهم يقفون جنباً إلى جنب، والفخر بادٍ على وجه والدتهم وهي تنظر إليهم وكأنها ملكة أنجبت ملوكاً.. ملوك الأراضي المقفرة!

أقلع جيرد بالطائرة..

هل بإمكان هذه الأسرة المنيعة أن تحطم سلطة آل كروجر؟ وهزت رأسها لهذا التفكير الخيالي.. لماذا يقومون بذلك بينما هم غير مسؤولين

www.elromancia.com

عنها وعن أليسيا، ولا يدينون لها بشيء؟

حري بها أن تخبرهم بكل شيء، وأن تكشف لجيرد سرها ليعي الورطة التي يزج فيها أسرته، ويدرك الحياة المستقبلية التي تنتظره معها، فيمكنه حينها أن يقرر ما إذا كان ما يريده يستحق النضال من أجله.

الخيار خياره.

وقد طغى على خيارها..

حاولت أن تتناسى قلقها فتركت دموعها تنساب على وجنتيها. قد يعتقد جيرد أن «جنة كينغ» ملجأ ممتاز، لكن كريستابل لم تستطع أن تصدق ذلك. فهو، بالنسبة إليها وإلى أليسيا نهاية الطريق.

* * *

٨ ـ الخطر المثير

انتظرت أليزابيت كينغ حكم قيكي خان على الرجل الذي جاء إلى بيتها، فقد كان شكله غريباً ويثير القلق. وبعد سنوات طويلة من الترمّل، وجدت نفسها منجذبة إلى رجل، بالرغم من اعتقادها أن مثل تلك المشاعر قد ماتت فيها عند موت زوجها لاكلان، لأنه كان فريداً من نوعه بالنسبة إليها.. وها هو رافائيل سانتيسو يثير عواطفها من جديد.

اشتبكت عيناه السوداوان المتألقتان بعينيها، وأبرزت قوة ذهنه، وقدرته التامة على السيطرة على الموقف. وقد اعتقدت هذا الصباح أنه إسباني أرستقراطي، بملامحه الجذابة وقامته الفارعة المهيبة، ولكنها علمت أنه أرجنتيني الأصل، فتساءلت عما إذا كان يتحدر من أسرة تملك مزارع ماشية في أميركا الجنوبية. كانت شخصيته توحي بأنه رجل عنيد، قوي الاحتمال، إلا أنه من الحماقة مقارنته بلاكلان زوجها الراحل.

إنه رجل خطر، كما حذّرها جيرد، وبارع في التلاعب والمناورات، ووصيّ على إرث كروجر الضخم، الذي يعود لابنة كريستابل، أليسيا كروجر وليس ڤالدز. ومنذ أكثر من سنتين وكريستابل تهرب من رافائيل سانتيسو ونفوذه، وهي ليست غبية، إلا أن تصرفاتها الغامضة باتت الآن أكثر وضوحاً، بعد أن كشفت عن قصتها لجيرد.. ومن المؤكد أن مخاوفها كانت في محلها.

أما اليزابيت، فكان الإحساس بالخطر يمنحها نوعاً من الانتعاش..

www.elromancia.com

لعلها الحاجة إلى الحذر، والتيقظ والاستعداد لمواجهة التحديات.

لم تعد تذكر آخر مرة شعرت فيها بهذه الإثارة لأنها كانت تعلم بأن رافائيل ينتظر على شرفتها، ليسأل رضاها.

سمعت وقع أقدام ڤيكي في الردهة، فخفق قلبها وهي تنتظر حكم مدبرة بيتها العجوز.

سألتها وهي تدخل المطبخ وعيناها تغمزان مازحة:

- حسناً؟

- لم يعتد على خيبات الأمل.. ولكن مزاجه سريع التقلب، يا أليزابيت. إذ ينتقل من التهديد والوعيد إلى المزاح بلمح البصر.

- لكنه عاملك بازدراء في البداية.

- كان محبطاً فحسب، لكنه بارع في قراءة شخصيات الآخرين. كما إنه يراجع نفسه قبل أن يطلب منك شيئاً، ويتوخى أن يكون ذلك بشكل التماس.

- وما شعورك الشخصي حياله؟

لم يفت تلك العينين الداهيتين شيء، فقالت:

- إنه موظف دولة.

قطبت أليزابيت حاجبيها، إذ لم تعجبها تلك الصورة واستطردت ڤيكي قائلة:

- إنه حاكم ماكر وقائد كفؤ.

فقالت أليزابيت تذكرها:

- إنه مسؤول عن إمبراطورية مالية واسعة.

- بصفته وصي وليس امبراطور.

- كريستابل لا تثق به فغالباً ما تفسد السلطة صاحبها.

- لم ألمس فيه إثماً، ولا أنت يا أليزابيت، فأنت منجذبة إليه.

فضحكت أليزابيت:

- لا شيء يفوتك، يا ڤيكي.

- لقد جاء وحده، ألا يعني لك ذلك شيئاً؟

- سنرى، أحضري لنا المرطبات بعد عشر دقائق.

- ألا تريدين دعوته إلى الدخول؟

- لا، فكريستابل تعتبره عدواً، ولن أدعوه إلى بيتي قبل أن يقنعني بالعكس.

انتبهت إلى خفقان قلبها وهي تعبر الردهة متجهة إلى الباب الخارجي. كان قدومه وحده يعني الكثير، فقد أبلغتها سكرتيرتها أن الرجال الثلاثة سيحضرون إلى المكتب عند الساعة الرابعة، إلا أنهم علموا من دون شك، من معلمة أليسيا أن فريستهم قد رحلت مع جيرد قبل انتهاء اليوم الدراسي.

تعمدت أليزابيت الذهاب إلى بيتها بعد أن سمعت تقرير جيرد من «جنة كينغ»، تاركة سانتيسو يلاحقها. فطريقة تصرفه ستنبؤها بالمزيد عن صفاته، بالرغم من أنه أمضى صباحاً وعصراً وقتاً طويلاً مع المحاسب السويسري والمحامي الألماني. ها هو قد أتى إليها بعد الخامسة، وتكهنت أليزابيت بأنه فكر ملياً في الساعة الماضية.

فتحت الباب فإذ به يقف بعيداً عنه، متأملاً «خليج روباك». كان قد بدل ملابسه، واستدار نحوها فذكرها بمصارع ثيران يستعرض عضلاته متباهياً برجولته.

لعل ذلك يعود إلى ارتدائه قميصاً أبيض مفتوحاً عند العنق وسروالاً أسود، أو إلى بريق التحدي المثير في عينيه السوداوين الجذابتين، أو إلى إحساسها بقوته الكامنة التي على وشك أن تنفجر.. وأياً كان الأمر فقد كان تأثيره عليها أقوى من ذي قبل.. شعرت أليزابيت وكأنه يحاول التأثير عليها، عن عمد، مدركاً رجولته الطاغية.

مدّ يده إليها مصافحاً:

ـ السيدة كينغ . . .

أجابته مصافحة وقد اقشعر جسدها وهو يضغط على يدها:

ـ السيد سانتيسو.

ـ بعد أن علمت أن ابنك قد رحل بالطائرة مع كريستابل وابنتها لم يعد لديّ ما أفعله في بروم، وكنت أتساءل عما إذا كنت ترغبين بتناول العشاء معي الليلة.

سحبت إليزابيت يدها من يده، وأشارت إلى الكرسي والمائدة على الشرفة:

ـ دعوتك مغرية، يا سيد سانتيسو، ولكن عليك إقناعي. إن كنت تفضل الجلوس والاستمتاع بهذا المنظر الجميل . .

ـ لقد استأجرت «جناح نولان» في منتجع «كابل بينش» على الشاطىء. فيه غرفة طعام خاصة، قيل لي إن منظر غروب الشمس منه غاية في الروعة.

ـ هذا صحيح. وأظنك ستتأمل غروب الشمس مرات عدة إن كنت ستنتظر عودة كريستابل وابنتها إلى بروم.

وابتسمت وهي تتقدم نحو المائدة ثم أضافت:

ـ في هذه الناحية من شبه الجزيرة، نستمتع أكثر بطلوع القمر.

ضحك وهو يقول:

ـ أفهم من ذلك أنك تلمحين إلى أن علاقة ابنك بكريستابل لا تقتصر على العمل.

ـ جيرد عزيز على قلبي، يا سيد سانتيسو. ولم تتبدل محبتي له منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

واستقرت على كرسي في الطرف الآخر من المائدة ثم تابعت تقول، وقد رفعت حاجبيها، ناظرة إلى الرجل الذي يحسب نفسه قادراً على الفوز بها:

ـ أتظن أنني سأبلغ ذروة السعادة معك في منتجع «كابل بينش» فأنسى ذلك؟

قال بابتسامة عريضة دون أي ارتباك:

ـ لا شك أنك، أكثر النساء اللواتي عرفتهن، إثارة.

أجابته متجاهلة تسارع نبضات قلبها.

ـ لماذا لا تجلس إذن وتحاول أن تتعرف إليّ أكثر يا سيد سانتيسو؟

إنه يحاول مجاملتها فحسب، فرجل مثله قادر على الحصول على ما يريده من النساء الشابات الرائعات الجمال.

نظر إليها بإمعان، وهو يقف خلف الكرسي عند الجانب المقابل من المائدة، وسألها:

ـ لما لا تصدقينني؟

ـ لأنك أتيت إلى هنا بهدف محدد، ولا أظن أنني الهدف المقصود.

ـ لا بد أن كريستابل تشعر بالأمان مع ابنك.

ـ هذا ما أعتقده، لكنها لا تشعر بالأمان معك، يا سيد سانتيسو.

ـ رافائيل، اسمي رافائيل.

ـ أعرف ذلك.

ـ هل تسمحين لي أن أناديك أليزابيت؟

ـ إن شئت.

ـ إنني مسؤول عن سلامة طفلة. في عيد ميلاد أليسيا الثامن عشر، سترث ستمئة مليون دولار.

وسكت يترقب ردة فعلها ثم أكمل قائلاً:

ـ أرى أنك لم تتفاجئي، يا أليزابيت.

ـ لقد أعلمني جيرد بالأمر منذ ساعتين.

ـ وهل ينوي الحفاظ على سلامتهما؟

ـ إننا من ذوي المال والأملاك يا سيد سانتيسو.

قالت ذلك ساخرة، وهي تعلم بأن ستمئة مليون دولار لا تقارن بثراء أسرة كينغ.. إلا أن ثمة مصادر أخرى للقوة لا يمكن شراؤها بالمال. وبدت تلك الثقة في عيني أليزابيت وهي تضيف:

ـ هذا ليس عالمك، يا رافائيل، إنه عالمنا نحن.

ـ ملوك كمبرلي.

قال متأملاً وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة غريبة وهو يتقدم إلى الدرابزين يستند إليه، ليواجهها:

ـ لقد جئت لأتأكد من حسن نية أسرتك، هذا هو هدفي، يا أليزابيت. علمت بعلاقة كريستابل بابنك منذ البداية.. منذ شهور. وعلمت بزيارتها «جنة كينغ» لحضور زفاف ابنك الأكبر. وصباح الإثنين تلقيت تقريراً يفيد بأن علاقة حميمة قد نشأت بينهما.

هل هذا صحيح؟ هل أرسل من يراقب كريستابل طوال هذا الوقت؟ أم أنه جمع هذه المعلومات عند وصوله اليوم؟

سألته فجأة:

ـ هل أردت وضع حد لها؟

ـ وهل ترغبين بذلك؟

ـ أعتقد أن جيرد يميل إلى كريستابل أكثر من أي امرأة أخرى عرفها يوماً. وحتى الحواجز التي بنتها بنفسها لم تبعده عنها. كن واثقاً من أن ميراث الطفلة لا علاقة له بالموضوع، فثمة أمور لا يمكن ردعها.

ـ وأنت تحترمين مشيئة ابنك.

فأومأت:

ـ وكذلك إخوته.

فقال محذراً:

ـ هذه الثروة تجر مشاكل جمة.

كانت تدرك تماماً القوة والنفوذ اللذين يتمتع بهما اتحاد شركات

كروجر، فضلاً عن سيطرته على أسواق الذهب والماس، بما في ذلك كل حجر كريم في سوق المجوهرات.. ما عدا اللؤلؤ. ذلك أن مزارع اللؤلؤ في بروم والتي تنتج أفضل نوعية في العالم ملك أسر أسترالية.

قالت:

ـ لا يمكنك تهديد أعمالنا، يا رافائيل. وسنحارب أي محاولة للتدخل، ولا يساورني الشك في أن العرض والطلب سيكون لمصلحتنا.

فهز رأسه:

ـ لا أحاول تهديدكم، أردت فقط القول بأن الإرث لعنة أكثر منه فائدة، وستثقل كاهلكم المشاكل التي سيسببها.

أخذت أليزابيت تفكر في أنهم سيجدون طريقة لحل تلك المشاكل! فتعاطفت مع كريستابل أكثر من ذي قبل، وهي على يقين من أن هذه السواحل المقفرة ستحميها إذا ما قررت البقاء مع جيرد.

ولكن ثمة سؤال يطرح نفسه.. أين يقف رافائيل سانتيسو من كل هذا؟ وما هي مصلحته؟

ـ إذا كان الإرث لعنة أكثر منه فائدة، فلما قبلت الوصاية؟

لوى شفتيه ساخراً من نفسه:

ـ إنني مدمن على حلّ المشاكل.

ـ ومع ذلك جعلت كريستابل تهرب خوفاً منك.. هل تسمي ذلك حلاً؟

أمال رأسه جانباً، وهو يحاول أن يتريث في الرد ويقيّم مصداقيته. كانت هذه عقدة الصراع بينهما، ولا بد من حلها.

فقال بشيء من الخشونة:

ـ لخوفها أسبابه.. ولكن ليس مني. ثمة أشخاص لهم مصلحة كبرى في تسميم أفكارها ضدي. مما جعلها ترفض جهودي للحفاظ على سلامتهما هي وابنتها، وهذا ما زاد الوضع صعوبة.

وهز كتفيه بينما بدت السخرية في صوته:

ـ لا يمكن للمرء أن يرغم الآخرين على وضع ثقتهم فيه، وجدت أنه من الأسهل أن أيسر لها الهرب من «اتحاد شركات كروجر» التي كانت تعتبرها سجناً.

ـ هل أنت من خطط لذلك؟

ـ ووجّهت كل خطوة خطتها في طريقها.. الماس الذي كانت تبيعه للحصول على المال.. الأشخاص الذين اشتروه منها.. الحراس الذين كانوا يحرسونها من دون علمها، يمكنني إثبات ذلك، يا أليزابيت.

ـ ولكنها في مطلق الحال تعيش في خوف منك.

فردّ عليها بحدة:

ـ لم أستطع تغيير ذلك، والهرب كان خيارها. فقد منحها شعوراً بالحرية كانت بحاجة إليه. إذا كانت تخشاني، أتظنين أنني كنت سأسمح لها بتوطيد علاقتها بأسرتك؟

ـ لا أدري، إنك هنا الآن.

استند إلى الدرابزين خلفه وقد بانت الرقة في عينيه:

ـ أعجبتني هذه العلاقة، وإعجابي بها يزداد مع الوقت، يا أليزابيت.

فقالت بصوت خشن، خالٍ من الرقة:

ـ عليك أن تقدم لي شرحاً مفصلاً.

ـ الحقيقة هي.. أن هرب كريستابل وأليسيا الذي اشتركت فيه أطراف متعددة قد خدم غرضين. إذ أبعدهما من جهة عن خطر حقيقي كان يحدق بهما، وأتاح لي، من جهة أخرى، الفرصة للتصرف مع الذين كانوا يطعنون في صحة وصية بيرنهارد.

ـ وهل زال الخطر الآن؟

ـ نخشى دوماً من أن يقدم أحد على اختطاف الطفلة، لكنني مقتنع تماماً بأن منزل كروجر خال من الناقمين.

وبدت في عينيه نظرة قاسية وهو يقول:

ـ قد تتشكل من وقت لآخر جماعات تسعى لتغيير القوانين.

وابتسم مضيفاً:

ـ لكنني كلب حراسة جيد جداً.

لا بل أكثر من ذلك، كما رددت أليزابيت في نفسها، وقد أحست بالطاقة والالتزام اللذين يحركان هذا الرجل للقيام بما يريده. كان في ابتسامته شيء شيطاني، إنه يحب المخاطر كما يحب المشاكل، وربما هو هذا ما جعله مثيراً إلى هذا الحد.

قال بلطف:

ـ سنشكل فريقاً مناسباً، يا أليزابيت.

رفعت نظرها إليه وقد صدمها تحديه لها. فردت عليه قائلة، وهي تحاول كبت تجاوبها معه:

ـ بغية حماية أليسيا؟

ـ بل فريقاً بكل معنى الكلمة. وأنت تعلمين ذلك وهو جلي في عينيك. كم مرة ينظر المرء في حياته إلى شخص ويعلم ذلك؟ إنه شيء نادر يا أليزابيت. ولم يحدث معي قط.

ـ من الصعب عليّ أن أصدق هذا يا رافائيل.

ـ إنني أرمل، وقد أحببت زوجتي حباً جارفاً.. إنما أنت.. أنت، أشعر بأنك شريكتي الحقيقية. ولو كان زوجك حياً، لبارزته من أجلك.

لاكلان.. وشعرت أليزابيت للحظة بتمزق في قلبها.. لكن لاكلان قد رحل..

دخلت ڤيكي فجأة إلى الشرفة تحمل صينية المرطبات. هل مضت عشر دقائق فقط؟ وعادت أليزابيت تدعوه وهي تشعر بحاجتها إلى مزيد من الوقت للتفكير.

ـ لما لا تجلس، يا رافائيل؟

www.elromancia.com

نظر إلى ڤيكي، ثم توجه ليجلس على كرسي في الناحية المقابلة من المائدة.

أخذت أليزابيت تفكر في سنوات ترملها الطويلة الموحشة، وفي السنوات التي ما زالت أمامها. لم يعد أبناؤها بحاجة إليها. فقد وجد كل منهم شريكة حياته وسينجبون لها الكثير من الأحفاد، ولكن أتراهم سيملأون عليها حياتها؟ إن سلالة لاكلان ستستمر. ولم يبق لديها ما تنجزه.

قد يكون رافائيل كاذباً، أو سيداً في التحايل والمكر، كما قال جيرد. ولكن ما الضرر الذي سينتج عن قضاء أمسية مع هذا الرجل؟ لا يسعها أن تضعف أمام الإغراء، ولكن أمسية واحدة معه لا تلزمها بشيء، ما عدا انتهاز فرصة رغبت هي فيها.

فقالت لمدبرة منزلها وصديقتها وهي تفرغ الصينية:

ـ شكراً يا ڤيكي. لا تعدي لي العشاء، فقد دعاني السيد سانتيسو على العشاء هذا المساء في «منتجع الشاطىء» في جناح «نولان».

وابتسمت لها تلك العينان اللتان كانتا تنظران إليها عبر المائدة وهما تتألقان راضيتين. ليس الأمر بهذه السهولة، يا رافائيل، كما راحت تتوعده في قرارة نفسها.

ثم أضافت:

ـ وهو سيريني لوحات «سيدني نولان» التي منحت الجناح اسمها.

* * *

٩ ـ الحب الذي يقتل

حافظ جيرد وناثان على رباطة جأشهما، وهما واثقان كل الثقة من قدرتهما على مواجهة أي شيء. حتى ميراندا، زوجة ناثان، التي كانت تسكب القهوة، فقد بدا عليها الهدوء. لم ينزعجوا أبداً من الاتصال الهاتفي الذي تلقوه عند الساعة السادسة، ليطلعهم على آخر الأخبار في بروم.

أرادت كريستابل أن تصرخ بهم، هم الثلاثة، بأنهم أساؤوا فهم تحركات رافائيل.. كانت تعرف جيداً كيف ستنتهي سهرته مع أليزابيت. فغداً سيأتي إلى هنا، وقد حظي ببركة أليزابيت، وسيدخل رأساً إلى «جنة كينغ» دون إذن أو تبرير، ثم يخرجها من هنا، هي وابنتها، بصفته المسؤول عنهما والوصي على الثروة. فالرجل الذي تمكن من إقناع بيرنهارد كروجر بأن يعيّنه الوصي الوحيد على الميراث، يمكنه أن يقنع أي شخص بأي شيء، ولديه ستمئة مليون سبب يجعله يفعل هذا، ولعلها ازدادت اليوم بسبب مواهبه الخاصة.

ارتجفت كريستابل لفكرة العودة إلى القصر الشبيه بالسجن في أمستردام، أو الجزيرة اليونانية المحصنة، واهتز فنجان القهوة في يدها وهي تضعه على المائدة.

قال جيرد وهو ينهض عن كرسيه:

ـ من الأفضل ألا تشربي القهوة، فهي ستسبب لك الأرق. أتريدين

www.elromancia.com

الذهاب في نزهة في الهواء الطلق قبل النوم؟

فقالت شاكرة:

ـ نعم، نعم. هذا ما أريده.

فقالت ميراندا:

ـ سأعتني بأليسيا.

ـ شكراً لك.

وقفزت كريستابل عن كرسيها قبل أن يصل جيرد إليها، متلهفة إلى الخروج.

ثم ترددت قائلة:

ـ وإن استيقظت..

فطمأنتها ميراندا باسمة:

ـ سأجلس معها، فالحديث مع ابنتك يبعث السرور في النفس، يا كريستابل. أرجو أن أتمكن من تربية ولدنا كما تربين أليسيا.

كان حمل الشقراء الجميلة قد بدأ يظهر للعيان. وبدا جلياً أنها وناثان، سيكونان والدين محبين للغاية. شعرت كريستابل، للحظة، بطعنة غيرة عنيفة، فحتى لو بقي لورنس على قيد الحياة، ما كان ليصبح أباً صالحاً بل مدمراً. أما ناثان فيتحلى بطيبة جيرد ولطفه واهتمامه.. جيرد الذي لم ير في ميراث أليسيا لعنة بل تغاضى بعناد عن المشاكل التي يجلبها.

أومأت لميراندا قائلة:

ـ إنك بالغة اللطف.

منذ وصولهم إلى جنة «كينغ» وميراندا ترعى أليسيا، وتجول معها في كافة أنحاء المنزل، بينما كريستابل تتحدث إلى جيرد وناثان عن وضعها.

لم يخفف أي من الرجلين من وطأة المشكلة، بالرغم من احتفاظهما برباطة جأشهما، وانصرافهما إلى اتخاذ الإجراءات التي تطمئنها، مع احترامهما لقرارها وخيارها. وبعد أن أدركا أن هذه النتيجة أمر مسلم

به، خيل لكريستابل بأن بإمكانهما حل هذا الأمر فعلاً، ولكن اتصال أليزابيت الهاتفي كشف مناورات رافائيل الخبيثة، الذي كان يحتال على رأس الأسرة.

وضع جيرد يده بخفة على كتفها، فالتفتت إليه كالعمياء وهو يجرها معه إلى خارج غرفة الطعام، إلا أن حرارة جسده لم تخفف عنها.

تمتم وهو يحتضنها بقوة أكبر:

ـ ستسير الأمور على ما يرام، أمي ليست غبية يا كريستابل.

ما كانت لتصف أليزابيت كينغ بالغباء، لكن رافائيل سانتيسو قادر على أن يذر الرماد في عين أي كان مهما بلغت درجة ذكائه وفطنته.

فقالت بخشونة:

ـ إنها لا تعرفه مثلي.

ـ شيء واحد تعرفه أسرتي جيداً، وهو عدم الاستسلام.

لكنهم يفسحون المجال.. كما أخذت تفكر يائسة.

كانت السماء صافية، لا تنذر بهبوب عاصفة باستثناء تلك التي وصلت من أوروبا، جالبة معها سحب كثيفة. رفعت بصرها إلى السماء المرصّعة بالنجوم وفكرت في الماسات الموجودة في صندوق التوفير في المصرف في سيدني، والتي لن تسنح لها الفرصة لجلبها إذا ما انتهى فرارهما.

هذه هي آخر ليلة من ليالي حريتها، لأن سانتيسو سيأتي غداً برفقة أليزابيت لأخذهما، وسيقنع جيرد بأن لا مكان لها ولأليسيا هنا. وإن رفضت أسرة كينغ التخلي عن ورثة كروجر قد تتسرب قصة بسيطة إلى الصحف، فيدان آل كينغ. فهذا الرجل دون قلب، ولن يتوانى عن ملاحقة أهدافه. ولكن إن أعادهما إلى قبضته، فهل ستموتان في حادث مثل لورنس؟

اندفعت قائلة، وقد تذكرت يوم رقصت مع جيرد لأول مرة، شاعرة

بذراعيه حولها:

ـ دعنا نذهب إلى النهر حيث نُصبت الخيمة أثناء عرس ناثان وميراندا.

فقال بهدوء:

ـ إن الهرب لا يلائمك أنت وأليسيا. أعلم أنك خائفة ولكن لا بد من التوقف.

لم تجب، فما الفائدة من التذمر من الوضع الذي فرضه عليها؟ فقد حدث ذلك وانتهى الأمر. ستمضي ليلة أخرى معه، وهذا هو عزاؤها الوحيد.

وضعت ذراعيها حول خصره وهما يهبطان المنحدر إلى الشقة القائمة بجانب النهر. حك خدّه بشعرها، فخفق قلبها لهذا التعبير الرقيق عن الحب.. إنه يهتم لأمرها حقاً. فقد أطلق خوفها كل غرائز الحماية فيه، وأدركت أن حاجته إلى التصدي لأعدائها، هي التي دفعته إلى التصرف على هذا النحو اليوم، فلم تستطع لومه لكونه خُلق بهذا الشكل.

سألها بصوت تجلت فيه العاطفة:

ـ هل ظننت أن الميراث سيغير مشاعري نحوك؟

فأجابت:

ـ لم يؤثر عليك بعد، ولكنه يهيمن.. على كل شيء.

ـ وأنت تريدين العيش بعيداً عنه.

ـ هذا إذا تمكنت من ذلك.

ـ وهذا هو سبب هربك الدائم؟

ـ نعم.

ـ وأمضيت في بروم مدة طويلة.

ـ نعم.

وتنهدت وهي تدرك أن بقاءها هنا كل هذه المدة جلب لها المصائب.

أوقفها عن السير، ثم استدار يواجهها:

ـ هل فعلت ذلك من أجلي، يا كريستابل؟

مدّت يدها تلامس وجنته، متشوقة إلى المزيد، هذا هو يوم الحقيقة. لم يعد من سبب يجعلها تخفي عنه شيئاً، فاندفعت تفصح عما في قلبها.

ـ لم تخالجني مشاعر مماثلة من قبل تجاه أحد. ما كان يجدر بي أن أتمادى إلى هذا الحد.. ولكنك كنت موجوداً.. ولم أستطع أن أبعدك عن ذهني.

تمتم وهو يمسك بيدها ويرفعها إلى فمه ويقبل راحتها ثم يسير بها إلى مقعد خشبي طويل:

ـ إنني أبادلك المشاعر نفسها، فأنا لا أقوى على مقاومتك.

فقالت وهي تجلس بجانبه:

ـ ضمني إليك إذن.. الآن..

ورفعت ذراعيها تعانقه.. إنه رجلها وهي امرأته في هذا المكان من الأرض المخلوقة منذ الأزل، والنجوم المتلألئة فوقهما في الفضاء الرحب تشهد على ذلك، إنه رجلها.. كل خلية من جسدها تنبض بهذه الحقيقة، ممتلئة بهجة لإدراكها ذلك.

عانقته بدورها بعاطفة محمومة، وقد شعرت برغبة جامحة بأن تملأ أحاسيسها منه وتبقيه معها إلى الأبد.

أرادت أن يلزما الصمت، ولكنه راح يتكلم فأعادها إلى العالم الذي لا تريد أن تفكر فيه.

قال برقة فائقة:

ـ تزوجيني، يا كريستابل. لا أستطيع تصور حياتي من دونك.

تسمرت في مكانها وقد تسلل الصقيع إلى عظامها. لم تستطع أن تتصور حياتها من دونه. وهذا ما سيحدث قريباً.. ألا يمكنهما أن يمضيا هذه الليلة من دون أن يفكرا في المستقبل؟

www.elromancia.com

قال بإصرار وهو يضع يدها على قلبه:

ـ إننا مخلوقان لبعضنا البعض، وأنت تعلمين ذلك.

تنهدت، محاولة التخفيف من التوتر الذي تملكها والصقيع الذي غلف قلبها، ثم قالت ضارعة:

ـ أطلب مني ذلك غداً مساء، يا جيرد وليس الآن.

مضت لحظات شعرت فيها بصدره يعلو ويهبط. فتوسلت إليه أن يتجاوز هذا السؤال، فهي لا تريد أن تواجه خلافاً يسلبهما بهجة اجتماعهما هذا. لكنها أحست بتصميمه، وإصراره على ملاحقة الموضوع، وهو يسألها ويده تبعد خصلات شعرها عن وجهها وكأنه يريد أن يرى كل تعبير يرتسم عليه:

ـ لماذا ليس الآن؟

رفعت بصرها إليه حاقدة على الظروف التي جعلت موافقتها على عرضه لها عبئاً ثقيلاً على ضميرها.

ـ لا يمكنني ربط حياتي بحياتك قبل أن أعرف ما يريده رافائيل سانتيسو، وسبب مجيئه.

ـ ماذا تريدين، يا كريستابل؟

ـ لست حرة، يا جيرد، أليسيا هي ابنتي ولن أدع أحداً سواي يرعاها.

فقطب جبينه:

ـ ما كنت لأتوقع منك ذلك، لكنني سأكون سعيداً بتبنيها ومشاركتك مسؤولية تربيتها. سأبذل جهدي لحمايتها ومنحها عائلة سعيدة.

الزواج.. التبني.. الروابط الشرعية.. سيرى رافائيل سانتيسو في هذا كله، تهديداً لوصايته. كما أن جيرد ليس بالشخص الذي يسهل التغلب عليه. فهو يظهر، منذ الآن، رغبته في أن يكافح في سبيل ما يؤمن

به، فضلاً عن تحليه بالكفاءة اللازمة لإدارة ملايين الدولارات. إن كان على الأرض عدل لانتصر على سانتيسو.. لكنها كانت واثقة من أن الأرجنتيني يلجأ إلى أساليب بعيدة عن النزاهة بينما كرامة جيرد لا تسمح له بالتصرف بقذارة.

ـ أنت تعلمين أن أليسيا تحبني، وأنا واثق من أنني سأقنعها بأن تقبل بي أباً لها.

إن أراد أن يلعب دور والد أليسيا فسيلقى حتفه لا محالة.

تنفست بعمق لتخفف من حدة المخاوف التي أثارتها أفكارها هذه.

ثم رفعت يدها تلمس وجنتيه بأناملها بخفة:

ـ أظنك ستكون أباً رائعاً.

ـ قولي إذن إنك ستتزوجينني، يا كريستابل.

ـ أرجوك أن تدعني أفكر في الأمر، يا جيرد، إمنحني هذه الليلة لكي..

فهز رأسه وقال بخشونة:

ـ لا، لن أدعك هذه المرة تهربين مني كما فعلت ليلة الأحد، حين تركتني وذكرى ما حدث بيننا. أخبريني ما هو الخطأ في عرض الزواج هذا.

لقد تغيّر مزاجه، وأدركت أنها لن تمضي ليلة رائعة ما لم تقبل عرضه. وهي لا تستطيع الموافقة على الزواج منه.

ـ أشعر بالبرد، يا جيرد.

وكان هذا صحيحاً لأنها شعرت بقلبها وكأنه لوح من ثلج.

ثم أكملت:

ـ دعنا نعود إلى البيت.

فتردد، لكن العنف لم يكن من طبعه. كان يفضل الإقناع، وهو لم يرغمها يوماً على الانصياع لما يريده.. حتى ركوب الطائرة لم يرغمها

www.elromancia.com

عليه، وإنما ببساطة، تولّى قيادة الطائرة إلى حيث يريد، مقدماً على ما يعتقد أنه الأنسب لهم جميعاً.

نهض واقفاً.. فوجدت فيه رجلاً رائعاً ذا كبرياء لا يكاد يكبح جماح الغضب الذي يتملكه. مدّ لها يده يساعدها على النهوض، لكنها لم تأخذها، فقد شعرت بأنه سيأخذها بين ذراعيه ويضغط عليها حتى تستسلم لما يريد. وهكذا مالت إلى جنب ووقفت بعيدة عنه.

قال بخشونة:

ـ ألا تثقين بيدي؟

فصرخت تقول:

ـ إنها ليست مسألة ثقة.

ثم أدركت أنها آلمته بصمتها، فواجهته بالحقيقة التي رفض رؤيتها وقالت:

ـ إنني سمّ بالنسبة إليك، يا جيرد، إن تزوجتني قضي عليك.

ـ أنا مستعد للمجازفة، يا كريستابل.

ـ لكنني لست مستعدة لذلك.

ـ لماذا طلبت مني إذن الانتظار إلى الغد؟

ـ لأنني أنانية جشعة. أردت أن آخذ منك ما أستطيع أخذه قبل أن يأتي الغد.

واغرورقت عيناها بالدموع، فحولتهما عن نظراته واليأس والهزيمة قد أخذا منها مبلغاً.

فقال وقد حيره تحديدها للوقت:

ـ لا شيء سيتغير غداً.

فقالت بمرارة:

ـ انتظر وسترى.

فرد عليها بعنف:

ـ لقد انتظرت طويلاً يا كريستابل. أخبريني ما تتوقعين حدوثه.

قالت خائفة مما ينتظرها:

ـ سيأتون. أمك ستحضرهم، سيقنعها سانتيسو بأي شكل كان، سيقنعكم جميعاً بأنه من الأفضل أن تدعوه يعيدنا أنا وأليسيا إلى وصايته.

فقال بعنف:

ـ لن يستطيعوا إقناعي أبداً بذلك.

انتصبت واقفة ونظرت إليه مباشرة، قائلة بهدوء:

ـ الخيار ليس خيارك، يا جيرد. بل خياري.

ـ إنك تنكرين عليّ حق اختيار الحياة التي أريدها معك يا كريستابل مهما كلفني ذلك.

كانت نبرة صوته تعبر عن عواطفه المحمومة مما سحق قلبها. فقالت ضارعة:

ـ لا يمكنني العيش مع هذه التضحية. لا تطلب مني ذلك.

ـ حتى ولو ذهبت مع سانتيسو، سأتبعك ولن أستسلم.

فصرخت وقد تملكها اضطراب بالغ:

ـ إن لم تستسلم، قضيت علينا جميعاً.

فقال غير مصدق:

ـ القتل؟

ـ وقف والد أليسيا في طريق مطامح رافائيل سانتيسو، ففجروا القارب فيه.

ـ لكنك قلت إنه كان حادثاً؟

ـ هذا ما أُعلن رسمياً، لكنني لا أصدق ذلك. ليس لديّ برهان، لكنني لا أصدق ذلك. لا تقف في طريق سانتيسو، يا جيرد، وإذا فعلت فلن أغفر لنفسي أبداً.

استغرق في التفكير في كلامها، بينما استدارت كريستابل عائدة إلى

المنزل، مرغمة نفسها على الابتعاد عنه. عليه أن يدعها تذهب.. هذه هي الحقيقة.. فالمقاومة ستودي به إلى الهلاك.

* * *

١٠ ـ بانتظار الغزاة

تركها جيرد تذهب.

لقد سمره شبح القتل في مكانه. أخذت تشعبات الأمر تدور في ذهنه وهو ينظر إليها تبتعد عنه، صاعدة المنحدر نحو المنزل بخطى ثابتة. كانت امرأة وحيدة مثقلة بهموم جمة، تعود إلى ظلام لا مفر منه حسب ظنها.

أراد أن يبعدها عن ذلك، وأن يعدها بحياة مختلفة معه، لكنه كان يعلم أن كلماته ستذهب سدىً بالنسبة إليها.. وستبقى مجرد كلمات فارغة إلى أن يجد طريقة لتخطي هذا الحاجز النهائي المهلك. لقد أدرك أن ضغط انجذابها إليه كان يعذبها طوال الأشهر الماضية ولا ينبغي له أن يعرضها الآن لمزيد من الضغط بإلحاحه. كما أنه لا يملك أجوبة تخفف من آلامها.

منذ أن علم أن زوجها مات قبل ولادة أليسيا، لم يعد يفكر فيه مطلقاً، فلا علاقة له بالموضوع. كانت السنوات الخمس وقتاً طويلاً بالنسبة إليه، ولكن كريستابل ذاقت الأمرين خلالها.. وكابوسها لم ينته بعد، كما لم تنته ثروة كروجر والسلطة التي خلفها، وهذه حقيقة لا يستطيع إنكارها.

أخذ يلاحقها بعينيه إلى أن اختفت في الظلمة. مضت لحظات عدة استحوذ عليه خلالها شعور بالهزيمة، وتملكته وحدة باردة موحشة. رفع بصره إلى النجوم وشعر بمدى بعدها، واستحالة الوصول إليها، إلا أنها

www.elromancia.com

كانت تومض داعية أولئك الذين يجرؤون على اجتياز الفضاء للوصول إليها . . فيجازفون بأي شيء لغزو الفراغ.

وفي اضطرابه، عقد العزم على رفض الاستسلام حتى لا يتحول هو وكريستابل إلى مجرد سفينتين تمران في الليل. فقد قطع عهداً على نفسه بأن يأخذها وابنتها إلى «جنة كينغ» ويضع حداً لهربها الدائم. لن يدع سانتيسو ينتصر. فإن اقترف جريمة، كما تدعي كريستابل، ينبغي مواجهة أي تهديد من هذا النوع ومعالجته.

لقد فهم الآن، سبب هربها. . لماذا حاولت إنكار الإعجاب المتبادل بينهما؟ لعل ضميرها كان ينهبها عن توريطه في حياتها.

لقد فهم أيضاً رغبتها في التعبير عن المشاعر المتبادلة بينهما ما دام في إمكانها ذلك. لم يكن تصرفها أنانياً أو جشعاً، بل هو تمني لأن يطول عمر الأشياء الجميلة أو اللحظات التي قد لا تعيشها ثانية.

كانت تدرك بدورها أن ما كان بينهما أعمق من أن يعيشه أي منهما مع شخص آخر، لم تخطئ حين أرادت أن تأخذ ما تستطيع الحصول عليه.

ولكن جيرد لم يكن ينوي ترك الأمر ينتهي عند هذا الحد. فلكريستابل كرامتها، ووضع اللوم على الغير ليس من شيمها. لعل طبيعة المرأة تجعلها تبذل جهدها في سبيل تجنيب من تحبهم الأذى. ولكن إن انتصر المعتدي، أُرجئت المصيبة فحسب، فالضرر واقع لا محال، ولهذا يجب منع ذلك.

سار نحو المنزل ببطء، واضعاً خطة لما سيقدم عليه فيما لو كانت كريستابل على صواب في قراءتها للوضع. لعل الخوف حرّف نظرتها إلى الأمر، لكنه لم يشأ أن يشك فيها. فقد تصرفت وفقاً لما تعتقده صواباً، بعزم أقوى من رغبتها الشخصية وهذا يعني له الكثير.

كانت الأنوار في غرفة الجلوس مضاءة، وناثان وميراندا ينتظران تحسباً

لحاجة أحد إليهما. نظر جيرد إلى ساعته، ما زال هاتفه الخلوي في جيب قميصه.

توقف عند النباتات المتعرشة التي تشكل سياجاً يحيط بذلك المنزل القديم الفخم، ثم أخرج الهاتف واتصل بمنزله في بروم، كان يريد التحدث إلى أمه قبل أن يتحدث إلى ناثان.

ولكن لم تكن أمه من أجاب، وإنما ڤيكي خان.

ـ أنا جيرد، يا ڤيكي.

ـ لم تعد بعد، كما وأنها لم تذكر لي موعد عودتها.

جاءه الرد المباشر على اتصاله.

قطب جيرد جبينه، فارغ الصبر:

ـ أين يمكنني الاتصال بها؟

ـ عليك أن تثق بأمك، يا جيرد، فتنتظر حتى تتصل هي بك.

ـ أخبريني، يا ڤيكي، ولا تقفي عائقاً، فهذا الأمر بالغ الأهمية بالنسبة إليّ.

ـ وقد يكون مهماً بالنسبة إلى أمك، أيضاً.

ـ إنها تقابل السيد سانتيسو نيابة عني.

ـ لا أظن ذلك تماماً، يا جيرد. إن رافائيل سانتيسو رجل جذاب جداً، وبما أنك ابنها قد لا تلاحظ أن أمك ما زالت تحتفظ بحيويتها.

اضطرب جيرد لظهور هذا العنصر الجديد في القضية، فهو لم يقابل ذلك الرجل من قبل ليحكم على صحة نظرة ڤيكي من هذه الناحية. ولكنه وجد صعوبة في أن يتصور أمه مرتبطة بأي رجل غير والده، لا بل صدمته هذه الفكرة. لا بد أن ڤيكي مخطئة، ولعل والدته ادعت ذلك ليمنحها سانتيسو ثقته. وتذكر فجأة كلام كريستابل.

(سيقنعها سانتيسو، بأي شكل كان، كما سيقنعكم جميعاً. . .).

سأل ڤيكي بجفاء:

www.elromancia.com

ـ أين هما؟

فتنهدت:

ـ لقد دعا أمك على العشاء في جناح نولان في منتجع الشاطىء.

ـ هل ذهبت معه إلى جناح خاص؟

وسمع هو أيضاً رنة الغضب في صوته.

فقالت ڤيكي مستنكرة:

ـ ليس لديك الحق في إدانة ما تراه والدتك صائباً. وأذكرك بأنها احترمت اختيارك لكريستابل رغم أنها لم تكن تعلم عنها سوى القليل.

فرد عليها غاضباً:

ـ لكننا نعرف كل شيء عن سانتيسو، أليس كذلك؟ لقد أخبرتنا كريستابل.

ـ ثق بأمك يا جيرد، فهي ليست غبية.

عادت إلى ذاكرته الكلمات التي قالها لكريستابل من قبل، ولكن حكمه السابق على أمه قد اهتز الآن. (إنها لا تعرفه كما أعرفه) كان هذا رد كريستابل عليه.. رنت هذه الكلمات في ذهنه فجعلته يعتقد بأن أمه قد انخدعت برجل لا يثنيه شيء عن الحصول على ما يريد.

قال منهياً المخابرة وذهنه مشغول بتنبؤات كريستابل الأخرى:

ـ سأرى ما يحدث غداً.

ثم اتصل برقم تومي، مصمماً على إقامة حزام أمني. وعندما أجابه تومي، قال:

ـ هنا جيرد.

فرد تومي بسرعة:

ـ لم تصل أي أخبار بعد.

ـ إنه مع الوالدة في جناح نولان عند منتجع الشاطىء. احترس، يا تومي.. فهي تراه جذاباً.

ـ إنك تمزح.

ـ هذا ما تقوله ڤيكي خان.

ساد الذهول المكالمة.. فكلاهما يعلم جيداً أن علاقة حميمة تربط والدتهما بمدبرة المنزل.

وتابع جيرد يقول:

ـ تقول كريستابل إن سانتيسو سيد في المكر والتلاعب، وهي تتوقع منه أن يفلح في إقناع الوالدة بأن تحضر الزائرين الأوروبيين الثلاثة إلى «جنة كينغ» غداً. إن كان هذا صحيحاً، أريدك يا تومي أن تكون غداً صباحاً في بروم لتقود بنفسك الطائرة التي ستقلهم. لا أريد طياراً آخر. وابق هذا سراً بيننا، إتفقنا؟

ـ نعم، لكنني لن أخفي الأمر عن سام.

ـ إنها فرد من العائلة الآن.

منذ زمن طويل، وخطيبة تومي بمثابة أخت صغرى لجيرد، وهو يثق بها كل الثقة. وأضاف:

ـ لدي مهمة لسام، يا تومي.

ثم أخبره بالمهمة التي يريد أن يوكلها إليها.

ـ لا مشكلة. أين تتوقع أن ينتهي هذا، يا جيرد؟

ـ لا أدري! أتوقع أن نصل إلى حل غداً. لكنني لا أريد أن تعيش المرأة التي سأتزوجها في خوف دائم.

فقال تومي بصلابة:

ـ أنا معك، يا جيرد.

ـ أشكرك، يا تومي.

شعر جيرد بالرضا لاستعداده الكامل لمواجهة الأساليب الملتوية التي قد يستعملها سانتيسو لإقناع والدته، واتجه إلى البيت الذي احتمت فيه أسرة كينغ منذ أكثر من مئة عام. توقف أمام البوابة الأمامية، فتراءت له

أرواح أولئك الذين بنوا هذا المكان، ومرت أمامه ذكرياتهم الأسطورية والضيافة الدائمة والتقاليد التي اقترنت بها.

فليأت سانتيسو، وإذا حاول هو وأصدقاؤه أن يكشفوا عن أنيابهم المسمومة، سيطردون من «جنة كينغ» ويرمون في البراري.

لن تكون المرة الأولى التي يحاول فيها معتدٍ الخروج حياً من هذه السواحل المقفرة والقاسية، والتي تزرع في النفوس احتراماً جديداً للحياة ولحياة الآخرين. فأموال العالم كلها تصبح تافهة أثناء تلك الرحلة، ولطالما وضع قانون لاكلان العقوبات المناسبة للجرائم وفرض العدالة.

قرر جيرد أن يجعل رافائيل سانتيسو يعرف طعم الخوف، ومعنى الشعور بالوقوع في مأزق لا مخرج منه. فإن مرت عليه سنتين وهو على تلك الحالة انقلب تفكيره كلياً، وأدرك ما كانت كريستابل تعانيه. ولكن عليه أن يحرص على أن يجد مبرراً لذلك قبل الإقدام عليه.

أما ضعف والدته تجاه هذا الرجل فموضوع آخر، ولكنه واثق من أن غريزتها الصادقة لن تخدعها. وهو لم يشعر قط بعدم الانسجام مع أمه، فهل من الممكن أن تخدع بسانتيسو بهذه السرعة؟

كان ناثان وميراندا ينتظرانه جالسين في القاعة الكبيرة التي تحتوي على قطع أثرية قديمة، مختلفة الأذواق والأشكال، تشهد على الأجيال المختلفة التي مرت عليها، فتآلفت هذه الأشياء أمامه في مزيج يسر العين.

كانت أمه تجلس دوماً على كرسي بذراعين مغطى بقماش من الحرير القرمزي، تمنى لو أنه لم يكن خالياً هذه الليلة. وناثان يحتل كرسياً ضخماً مغطى بالجلد الأسود يتسع لجسمه الضخم المنيع، أما ميراندا فأخذت تنظر إليه بقلق، من الأريكة التي كانت تفضل الجلوس عليها. . كانت ميراندا يتيمة الأبوين، وقد اختارت جيرد ليرافقها إلى المذبح يوم زفافها من أخيه. ألم يكن لكريستابل أقارب شأنها شأن ميراندا قبل زواجها من ناثان؟ عليه أن يعرف المزيد عنها. ماذا عن حياتها في البرازيل قبل أن

تتعرف إلى لورنس كروجر وتتزوجه؟

قالت ميراندا:

ـ جاءت كريستابل وحدها، فحملت ابنتها ودخلت غرفتها. بدت وكأنها تبكي، يا جيرد.

أجفل للألم الذي سببه لها من دون قصد، إلا أنه شعر بالارتياح بعد أن توضحت صورة العدو الذي يجدر به محاربته. التفت إلى ناثان الذي كان ينتظر سماع آخر الأخبار وقد نفد صبره، فحدق بعينيه الزرقاوين الحادتين في أخيه الأصغر، مدركاً مدى تعقّد الوضع، وصعوبة ما يريد جيرد الإقدام عليه.

أعلن جيرد بخشونة:

ـ ثمة المزيد.

ثم أطلع ناثان على آخر التطورات، وهو يسير إلى حيث ألقى بجسمه المنهك، وأضاف قائلاً:

ـ ما رأيك بكل هذا؟

فأجاب ناثان بهدوء وهو ينهض من مقعده، ويتقدم ليمسك بكتفي جيرد:

ـ نحن معك. سنقوم بأي عمل يقتضيه الأمر.

كان يسانده مساندة مطلقة، كما رأى جيرد في عينيه. هذا ما كان يميز الأخوة الثلاثة، فهم يمشون على خطى أبيهم كما يقال. ولكن إحساسه العميق بالقربى قد اهتز بانجذاب أمه إلى الطرف الآخر.

قالت ميراندا بقلق:

ـ ماذا عن أليزابيت؟

استدار ناثان ليجيبها بحزم دون أن يبدو على وجهه أي تعبير يفصح عما في داخله:

ـ إننا نحمي ما نملكه، وهذا يتضمن أمنا أيضاً. فإن أخطأت في

حكمها على الأمور.. فأي سعادة تظنينها ستجد معه؟

فهزت ميراندا رأسها:

ـ من الصعب أن أصدق أن أمك...

فأكمل ناثان كلامها:

ـ وحيدة..! إن رافائيل سانتيسو يرأس امبراطورية مالية، وينبغي له أن يتحلى ببعض المزايا للقيام بذلك.

والتفت إلى جيرد مستطرداً وقد بدت في عينيه نظرة ساخرة:

ـ لعلها ترى فيه صورة عن أبينا.. أو شيء آخر.. من يدري؟ فهي تعاني من الوحدة منذ سنوات طويلة.

فهم جيرد لأول مرة معنى التجاذب.. رجل ذو إرادة قوية لا تهزم.. رجل تحدّى أمه.. وفهم جيداً معنى الإحساس بالوحدة.. وكم كان شاكراً لناثان لقوة إدراكه التي ساعدته على تقبّل الضعف البشري.

قال أخوه الأكبر بهدوء وحزم في آن معاً:

ـ علينا الاحتراس يا جيرد. وإن خدعت أمنا وجب علينا الحفاظ على كرامتها. هل أوضحت ذلك لتومي؟

قال وعيناه تقران، بسخرية، بضعفه البشري:

ـ لا، فقد كنت غاضباً. شعرت.. بأنني مخدوع.

أومأ ناثان متفهماً:

ـ كنت دوماً مقرباً إليها، وفي النهاية أظنها ستأخذ مشاعرك بعين الاعتبار. سأتصل بتومي وأبحث الأمر معه. اتفقنا؟

تذكر جيرد أيام الصبا عندما كان ناثان يحل مشاكل أخيه الأصغر، فابتسم لاوياً شفتيه:

ـ لقد أصبحت الآن راشداً.

ضحك ناثان وعيناه تلمعان رضىً:

ـ أريد أن أوفر عليك الوقت، يا جيرد.

ثم نظر إلى زوجته برزانة:

ـ ميراندا على صواب. لقد كانت كريستابل تبكي عندما عادت من نزهتها معك...

ـ كان عليّ أن أنهي الأعمال، لكنني أكون لك شاكراً إن تحدثت إلى تومي. وشكراً، يا ناثان.

ومد يده يمسك بكتف أخيه، وقد خنقته المشاعر العميقة ثم قال:

ـ لم تخذلني يوماً، وكم يسرني أن أشعر بوجودك قربي عند حاجتي إليك.

ـ سنبقى متقاربين.. على الدوام.

شعر جيرد بغصة في حلقه منعته عن الكلام. فرفع يده محيياً ميراندا ثم استدار على عقبيه وخرج من الغرفة، وقد تملكته مشاعر جامحة جعلت الحياة في نظره أغلى من ذي قبل.. مشاعر أراد أن تشاركه فيها كريستابل عندما يربط حياتها بحياته.

اجتاز الردهة متجهاً إلى الجناح التي تنام فيه هي وابنتها في غرفتين متصلتين. لقد اتخذ الإجراءات اللازمة في حال حدوث أي طارئ، وأخواه بجانبه.. و«جنة كينغ» هي «جنة كينغ» والغد سيأتي لا محال. ولكن ينبغي أن تمرّ هذه الليلة أولاً، وكريستابل بحاجة إلى حبه.

لا بل أكثر من ذلك.

يريدها أن تؤمن بحبه لها.

عليه أن يثبت ذلك بالفعل وليس بالقول. سيريها غداً مدى عمق حبه لها، أما الليلة فسيشعرها به.

نقر على بابها بلطف، راجياً أن تكون أليسيا نائمة في الغرفة الثانية لوحدها. انتظر لحظات طويلة، وعندما لم يسمع جواباً، نقر مرة أخرى.

ومرة أخرى، لم يسمع حركة. هل تحتضن ابنتها لتلتمس التعزية متعمدة تجاهل أي اقتحام لعزلتها؟ لم يستطع أن يتصورها نائمة، رغم أن

www.elromancia.com

هذا محتمل. ونظر إلى ساعته.. لقد مرت أكثر من ساعة منذ تركته.

وإذا بالباب ينفتح وسمعها تقول بصوت خافت:

ـ من هذا؟ آه، جيرد.

وسمع أنفاسها المتقطعة، وهي تتابع قائلة بفتور:

ـ لم يعد لدينا ما نقوله الليلة.

بدا من صوتها المرهق المتبلّد أن كل شيء قد انتهى، فقال ملحاً بلطف:

ـ أريد فقط أن أكون معك، يا كريستابل.

بقي الباب مشقوقاً. وأحس جيرد بصراع داخلي يقض مضجعها.. هل تفتح له الباب أم تقفله في وجهه؟ ولكنه ما لبث أن دفع الباب، منهياً بذلك صراعها، فانفتح على مصراعيه من دون مقاومة، أو ترحيب. لم يلمحها على الفور، إذ كان المصباح الموضوع على جانب السرير يلقي نوراً خفيفاً على الغرفة. وراح ينظر حوله بحثاً عنها فتنبه إلى أغطية السرير المبعثرة والتي تدل على أنها كانت مستلقية عليه. ثم رآها مستندة إلى الجدار خلف الباب، غير آبهة بشيء، تاركة له حرية التصرف وكأن ذلك لم يعد يشكل فرقاً بالنسبة إليها. كانت مطأطئة الرأس، مهزومة، ودموعها تنهمر على وجنتيها، وشعرها مبعثر، وقد ارتدت قميص النوم الأبيض الذي أعطتها إياه ميراندا. إلا أنها لم تظهر أي اهتمام به، بل أحنت كتفيها، وأغمضت عينيها لتبعده عنها.

أغلق الباب وأخذها بين ذراعيه.. كان الإرهاق قد بلغ منها مبلغاً، فلم تقوَ على الاستمرار في المقاومة. تركته يجرها إليه ويريح رأسها على كتفه وهو يمرر يده على شعرها برفق، ويربت على ظهرها، آملاً أن يبعث فيها الدفء والراحة، محاولاً أن يلفها بدثار من الحب، قد يخفف من عذابها.

إلا إنها ما لبثت أن طوّقته بذراعيها وتنهدت قائلة:

ـ آسفة لأنني..

وبدا التعب البالغ في صوتها وهي تضيف:

ـ لم أقصد أن أورطك.. أنت وأسرتك.. في الموضوع.

ـ أعلم هذا. ويؤسفني أن تتحملي كل ذلك وحدك.

ـ لديّ أليسيا.

أجابت بذلك، مستسلمة إلى لعنة الميراث.. ثمن حصولها على الإبنة التي تحب.

سألها فجأة برقة:

ـ ألا أقارب لك يساعدونك؟

رفعت رأسها تنظر إليه بعينين حزينتين:

ـ لقد ساعدوني.. عندما عدت إلى ريو دي جانيرو.

تملصت من أحضانه وسارت متجهة نحو السرير وهي تتابع قائلة:

ـ اتصلت بأهلي لأتمكن من بيع بعض مجوهراتي والحصول على نقود لا يمكن تتبع أرقامها، وجواز سفر باسم مختلف. لكنني كنت أعلم أنهم عاجزون عن حمايتي لمدة طويلة فأسرتي معروفة.. وكان من الأفضل لي أن أتركهم.

سكتت وهي تلتفت إليه:

ـ تماماً، كما يجب بي أن أتركك.

فهز رأسه:

ـ ليس لأجلي، يا كريستابل. وليس لأنني قد أهدد حياتك أو حياة أليسيا.. لن أفعل شيئاً إلا إن طلبت مني ذلك.

رأى فيض الحنين السافر في عينيها، قبل أن تسدل عليهما أهدابها الطويلة. راحت تهز رأسها محتجة، فمدّ يديه يديرها إليه لتواجهه.

ـ جيرد..

ـ لا.. قولي إنك ستتركيني مساء غد إذا كان هذا قرارك. ولكن

أحبيني الآن، يا كريستابل، كما أحبك.

عانقها، فاستحال عذابها إلى عاطفة محمومة كعواطفه. كان حبهما، من القوة، بحيث لم تكن تحتاج إلى إقناع، فبادلته العناق ووجد جيرد في هذا ما يكفي ليجعلهما يجتازان الحواجز ليطمئنا إلى مستقبلهما معاً.

* * *

١١ ـ في أرض الملوك

جاء اليوم الذي لطالما كانت تخشاه خلال هربها. شعرت بالغرابة لأنها لم تعد مضطرة للهرب، وها هي جالسة تراقب الأحداث وقد سلمت زمام الأمور إلى سواها، وكلها إيمان بأن جيرد سيتولى أمر الرجال أصحاب البذلات عندما يأتون.. فبعد أقل من ساعتين سيحطون في «جنة كينغ».

وجدت كريستابل صعوبة في مقاومة نوبات الذعر التي كانت تنتابها، فشعرت بنفسها غريبة بين نساء أسرة كينغ اللواتي كن يماثلن الرجال هدوءاً وثقة، وهن يثرثرن بمرح حول مائدة الفطور في ذلك المطبخ الريفي القديم، خاليات البال.

كان جيرد وناثان قد تركا المنزل منذ بعض الوقت، لمناقشة بعض الأعمال مع أفراد قبيلة السكان الأصليين الذين يعيشون في مزرعة المواشي. إلا أن الحديث المشوق الذي كان يدور بين زوجة ناثان وخطيبة تومي، كان أبعد ما يكون عن القلق، إذ كانتا تتحدثان عن حفلة الزفاف التي ستقام في كانانورا في نهاية فصل الشتاء. وقد قرر العروسان أن ينتقلا للعيش في المنزل الذي بناه تومي وسمانثا على التلة المشرفة على بحيرة «أرجيل». كانت هذه الأحاديث مثيرة للاهتمام.. وبينما كانت أليسيا تصغي إليهما بشغف، منع الاضطراب كريستابل من التقاط معظمها.

كانت ميراندا في عيني الطفلة البالغة من العمر خمس سنوات، سيدة جميلة تحكم مملكة مواشي. أما سمانثا، التي بناديها الجميع «سام»، وتتمتع

www.elromancia.com

بجمال ملفت، تبرزه خصلات شعرها النحاسية الجعدة، وعينيها الزرقاوين، ووجهها الودود المنقط بالنمش، فمغامرة مثيرة يمكنها أن تقود طائرة هليكوبتر. . وقد كانت الاثنتان تتحدثان، مسرورتين، إلى أليسيا، وترضيان فضولها حولهما.

أخذت كريستابل تتساءل عما إذا كانت زيارة الرجال الأوروبيين تلك، وهمية بالنسبة إليهما، بالرغم من أن ميراندا كانت تعمل، قبل زواجها من ناثان، في أحد الفنادق وقد اعتادت التعامل مع أشخاص من مختلف المهن والبيئات. كما وأن سام كونيللي، كانت ربان طائرة أجرة، وقد ألفت أيضاً الزبائن الأثرياء. إلا أن كريستابل شكت في أنهما قابلتا أشخاصاً مثل رافائيل سانتيسو الذي لم يحضر مع فوجيل وويسمان في رحلة استجمام. كانت تعلم في قرارة نفسها أنه لم يعد هنالك من مكان آمن لها ولابنتها، إذ تمكنوا من إقناع أليزابيت بإحضارهم إلى «جنة كينغ» كما تنبأت تماماً، غير أن تومي تكفل بقيادة الطائرة التي تقلهم حتى تظل العائلة ممسكة بزمام الأمور.

ـ حسناً، أظن أن الوقت قد حان لأنصرف.

أثار تعليق سام دهشة كريستابل إذ كان من المفترض أن يجتمع أفراد الأسرة كلهم لمساندتها.

ـ هل أنت راحلة؟

شعرت كريستابل وكأنها تتخلى عنها، وقد اهتزت الآمال التي علّقتها على قدرتهم على مساعدتها.

ابتسمت سام لها بحرارة، قائلة: عليّ أن أستقل الطائرة للإشراف على أعمال النجارة. وبما أنك ستنشغلين اليوم بأولئك الرجال، خطر لي أن أصطحب أليسيا معي، وسنتناول طعام الغداء في الهليكوبتر.

فصرخت أليسيا، وقد اشتعلت عيناها إثارة:

ـ آه، هل أستطيع الذهاب يا ماما؟ أرجوك.

فقالت سام تطمئن الأم وهي تربت على الهاتف المعلق في حزامها:

ـ ويمكنك الإتصال بي ساعة تشائين. تستغرق الرحلة ربع ساعة فقط، إن شئت أن نعود. ولكن تأكدي من أنه يسرني اصطحابها.

ـ نعم، نعم.

أخذت أليسيا تتوسل، فتنبهت كريستابل إلى أن سام أتت خصيصاً إلى هنا لتبعد أليسيا موقتاً عن منال كروجر، إلى أن تتوضح الأمور. لقد بذلت جهدها طوال الساعتين الماضيتين لتكسب ثقة الطفلة ومحبتها فتقبل دعوتها، من دون أن تشعر بالخوف منها.

قالت لها سام وعيناها الزرقاوان الصافيتان تفيضان بالعطف والرغبة في المساعدة:

ـ ليس هنالك من مشكلة. فهي ستكون في أمان. في أمان. .

وانتعش قلب كريستابل إذ لن تتعرض أليسيا، على الأقل، لأي صدمة اليوم.

قالت مبتسمة لابنتها، وقد أحست بعرفان جميل عميق:

ـ عديني بأن تكوني طيبة وتطيعي سام في كل ما تقوله لك.

فقالت وهي تنزل عن كرسيها وتدور في أنحاء الغرفة فرحة:

ـ أعدك.

مدت ميراندا يدها إليها، وهي تضحك لفرح الطفلة:

ـ تعالي وسنحضر قبعتك من غرفتك.

فور خروجهما من المطبخ، دخلت سام في صلب الموضوع:

ـ عرفت ناثان وتومي وجيرد طوال حياتي، ولن تحصلي على مساعدة أحد أفضل منهم، يا كريستابل. فكل واحد منهم على الاستعداد للقيام بكل ما بوسعه ليثبت لك أن مستقبلك هو مع جيرد.

لم تكن قد أعلنت بعد موافقتها على الزواج من جيرد، أو حتى على البقاء برفقته لمزيد من الوقت، فحاولت أن تفسر وضعها:

ـ ثمة.. مخاطر..

ـ لا مخاطر.. ولا مكافآت.

قالت سام ذلك وهي ترد عليها بمرح وكأن التجارب علمتها بأن السلبية تؤدي إلى طريق مسدود. لم تظهر قلقها حيال دورها في الترتيبات التي اتخذت لهذا اليوم وبدت مهتمة بتخفيف مخاوف كريستابل وهي تتابع قائلة:

ـ تومي سيقود زائريك فوق أكثر مناطق كمبرلي وعورة حيث لا طرقات.. ولا مظاهر حضارية، بل أمكنة أثرية وبلاداً غير مسكونة تثبط الهمم. فهو يريد أن ترسخ في ذهنهم صورة واضحة عن صعوبة بقاء المرء حياً هنا، حيث أن العزلة الكاملة تتلف عقل الإنسان وقلبه وروحه، وسرعان ما يفقد قوة الإدراك والملاحظة والقدرة على التجاوب وتقدير الأمور.

قالت كريستابل ساخرة وهي تفكر في أن المال لا يهتم سوى بالمال.

ـ لن يعني ذلك شيئاً بالنسبة إليهم.

مالت سام برأسها جانباً وكأنها تفكر في ذلك.

ـ قد يدركون ذلك فيما بعد، يا كريستابل، خصوصاً أولئك الذين يقللون من شأن ما يقدمون عليه.. حين يواجهون القفار، حيث الأرض تفرض القوانين لا الرجال.. فستتغير مقاييس الأشياء.

نظرت إليها كريستابل بمزيد من الحدة، وقد أحست بأنها تفصح عن الطريقة التي سيتعاملون بها مع سانتيسو.

سألتها غير مصدقة:

ـ هل تريدين القول.. إنهم قد يُحتجزون هنا إلى أن يغيروا نظرتهم إلى الأمور؟

ـ حسناً، أظنهم سيتعلمون خلال هذه الرحلة درساً حول القيم الأساسية، وأظن أن السيد سانتيسو سيفكر ملياً قبل نهاية هذا النهار.

وأومأت برأسها راضية.

ـ هل سيختطفونه ويلقنونه درساً..

كانت كريستابل غارقة في أفكارها تلك.

ـ جيرد وناثان وتومي..

ـ لن يسمحوا بأن تكوني، أنت وأليسيا، ضحيتين.

فبسطت كريستابل يديها باضطراب:

ـ ولكن.. عواقب ذلك..

فهزت سام كتفيها:

ـ سيؤدي ذلك حسب ظني، إلى اختلاف قواعد اللعبة. ولن يكون هناك من عواقب على الإطلاق، فلآل كينغ طريقتهم الخاصة في حماية أرضهم وقومهم، صدقيني أنك ستكونين معهم في أمان أكثر من أي مكان آخر.

جيرد يؤمن بذلك، والغريب أن قناعة سام هذه زادت إيمانها تماسكاً وقوة. ربما لأن سام لم تكن متورطة شخصياً، بالرغم من أنها تكفلت بالاعتناء بأليسيا اليوم، ولعل نشأتها في القفار هي التي منحتها هذه الثقة، فهي تعلم جيداً كيف تسير الأمور في هذا الجزء النائي من العالم.

بقيت الكلمات (قم بما يلزم) تتردد في ذهن كريستابل. كان جيرد يتصرف منذ البداية على هذا النحو، فهو لا يقبل الهزيمة مطلقاً. ولا ينفكّ عن المحاولة رغم مقاومتها تطفله في حياتها، فهو لا يستسلم، وكذلك تومي وناثان، حسب قول سام.

كانت شديدة القلق حيال ما قد يفعله رافائيل سانتيسو بأسرة كينغ، حتى نسيت التفكير في ما قد تفعله أسرة كينغ بالرجل الذي شغل بالها طوال تلك السنوات، فتستعمل القفار نفسها كسلاح.. لتغيير قواعد اللعبة.

تذكرت شعورها ببدائية الأراضي التي حلقت فوقها.. ذاك الشعور

الذي خالجها هنا في «جنة كينغ». كان رافائيل سانتيسو أشبه بقوة لا رادع لها.. لكن أفراد أسرة كينغ نشأوا بشكل مختلف عن الرجال الذين اعتاد هو التعامل معهم.. وأثارت فيها إمكانية تصادمهم معه إحساساً غريباً بالمرح، فتملكها السرور وهي ترى ابنتها تصعد إلى طائرة الهليكوبتر مع سام.

شعرت بالبهجة وهي تستمع إلى ثرثرة أليسيا المرحة وهن ينزلن إلى حيث الطائرة خلف مباني التجهيزات. كان وجهها الصغير متألقاً بشكل رائع لا يبدو عليه القلق، لم يؤثر عليها الإرث الذي لا تعلم شيئاً عنه. وتمنت كريستابل بحرارة أن تبقى كذلك لعدة سنوات، على الأقل، حتى لا يغرّها الثراء الفاحش ويؤثر على تربيتها.

أقلعت الطائرة بالطفلة السعيدة وسام كونيللي. ولم تستطع كريستابل منع نفسها من الشعور بالخوف مما ستعود إليه ابنتها وتأثير ذلك عليها.

لكن ميراندا قالت لها وهما تراقبان الطائرة ترتفع في السماء اللازوردية:

ـ لقد تدبروا الأمر حتى لا تقابل أليسيا الرجال الذين تخشينهم إلا إذا قررت أنت عكس ذلك.

فنظرت كريستابل إليها بحدة:

ـ وكيف تدبروا ذلك؟

فابتسمت ميراندا تطمئنها:

ـ لن يبقوا هنا. سيقلهم تومي إلى منتجعه في البرية المجاور لمزرعة المواشي. أظنك أقمت في إحدى مقصوراته خلال حفلة زفافي، أليس كذلك؟

ـ نعم، لكنني ظننت أنه يقفل أثناء فصل الشتاء.

ـ إن بعض الموظفين يقيمون فيه. ومن المفترض أن ينزل زائريك فيه طوال فترة وجودهم في «جنة كينغ».

ـ لا أظنهم سيبقون طويلاً.

ـ حسناً، أتوقع أن يتوقف ذلك على ما سيجري في اجتماع الصباح، والذي سيكون طبعاً تحت سيطرتنا.

أخذت كريستابل تحدق في البحيرتين الزرقاوين الهادئتين في عيني مضيفتها الرائعة الجمال، إذ لم يكن الخوف يعكر صفاءهما. كانت أسرة كينغ تجهز مسبقاً لوحة الشطرنج استعداداً للمعركة، فأبعدوا أليسيا، القطعة (الملكة) في اللعبة، ووضعوها في مأمن من أي هجوم مُحتمل. ونقلوا (الملك) العدو وحجري الرخ حيث يشاؤون، مما جعل الخصم يعي أن الأرض هي العامل المساعد. وتساءلت كريستابل فجأة عن نوع المساندة التي كان جيرد وناثان قد خططا لها مع قبيلة السكان البدائيين. فتملكها القلق.. ما أكثر الترتيبات التي قاموا بها من دون استشارتها! ولكن ماذا لو أن رافائيل سانتيسو قد وضع ترتيبات خاصة به قبل الصعود إلى طائرة تومي هذا الصباح؟

قالت بحدة منزعجة من ثقة الجميع العمياء بالنتيجة:

ـ إنك لا تعرفين هؤلاء الرجال وما يسعهم القيام به، يا ميراندا.

فأجابت ميراندا:

ـ إنني أعرف رجالنا. وأعرف ما الذي أنقذوني منه وأي وسيلة فعالة استعملوا.. فهم يستمدون قوتهم من شجاعتهم يا كريستابل، وهذا ما لا أظن أن رجالاً متحضرين غيرهم يعرفونه.

كانت تلك نسخة معدلة لكلام سام.. فعنصر البقاء البدائي.. ثمرة البيئة القاسية التي نمت فيهم القدرة على تحمّل أي شيء، ربما الأرض نفسها قد غيرت أيضاً شروط اللعبة حتى يتمكن أفراد أسرة كينغ من التغلب على أي قوة حشدها سانتيسو.

كان القلق يسيطر عليها، فراحت كريستابل تبحث عن براهين جديدة على قوتهم.

ـ ما الذي أنقذوك منه؟

فتجهم وجه ميراندا بأسى، وقالت:

ـ أنقذوني من رجل كان ينوي تدمير حياتي لأنني لم أمتثل لمشيئته.. كان وريثاً لسلسلة من الفنادق الدولية فحسب أنه يستطيع استغلال ثرائه للتأثير على أسرة كينغ ضدي.

وهزت رأسها وهي تسترجع ذكرياتها، ثم أضافت:

ـ لم تكن أمواله تعني لهم شيئاً، وهذا يثبت أن ميراث كروجر لن يعني لهم شيئاً أيضاً.

ولفت ذراعها حول كريستابل متعاطفة معها، وهي تسير معها عائدتين إلى المنزل. ثم ختمت كلامها قائلة:

ـ أظنهم سيساندونك إلى أقصى حد.

فلم تستطع كريستابل أن تمنع نفسها من القول:

ـ هذا يتطلب منهم الكثير، فالميراث لن يفنى، وسيأتي آخرون..

فقالت ميراندا وعيناها تتألقان:

ـ جيرد يحبك، وناثان يحبني، وتومي يحب سام، كل منهم يفهم ما يعني ذلك بالنسبة إليهم. لا شيء في هذا العالم يجعلهم يتخلون عن نسائهم.

ارتجف قلب كريستابل لعظمة هذا الحب وعمق التزامه. هل يمكنها قبوله مهما حدث؟ كانت تتمنى ذلك، فقد كان جيرد يفيض حباً الليلة الماضية.. وكم كانت تتوق إلى أن يغمرها الحب بقية حياتها.

دون مخاطر، ولا مكافآت.

رفعت بصرها إلى المنزل الشامخ أمامها وكأنه خير دليل على ثباتهم أمام المحن منذ أكثر من مئة عام. لقد حافظوا عليه بشكل رائع.. كان السطح الأبيض الهائل الحجم يتألق في أشعة الشمس، وأعمدة الشرفة البيضاء التي تعلوها شبكة حديدية مزخرفة مصنوعة على شكل تاج، تطل

بعظمة على المساحات الشاسعة من الأراضي الممتدة حوله.

إنه تاج ملوك القفار، أخذت كريستابل تفكر في ذلك باستغراب، وقد شعرت بأنهم حقاً ملوك ويستحقون التاج. فابتهلت إلى الله ألاّ تكون السبب في إخلال منزلتهم، راجية أن تحدث معجزة، لتتمكن من العيش بسعادة مع ابنتها وجيرد.

كانت تحبه.

ووحده الزمان كفيل بأن يثبت ما إذا كانت مكافأة الحب تستحق هذه المخاطرة.

* * *

١٢ ـ الغزاة في الأسر

أخذت كريستابل نفساً عميقاً عندما توقفت الحافلة الصغيرة القادمة من منتجع براري «جنة كينغ». كان جيرد قد أحاطها بذراعيه، فشدّها إليه ليذكرها بأنه إلى جانبها. وقد اصطفوا جميعاً على الشرفة، عند مدخل المنزل، للترحيب بالزائرين.

مضت أربعون دقيقة منذ رأوا طائرة تومي تهبط.. أربعون دقيقة طويلة للغاية.. أحست ببعض الارتياح وهي ترى ثالوث كروجر يهبط من الحافلة الصغيرة وقد فقدوا بعضاً من هيبتهم، وهم يرتدون قمصان مفتوحة العنق، وسراويل قطنية خفيفة. لكن كريستابل كانت تعلم أن هذا مجرد وهم، خاصة وأن الحقائب الجلدية السوداء التي كانوا يحملونها كذّبت البساطة التي كانوا يدعونها.

قادت أليزابيت كينغ برفقة رافائيل سانتيسو الموكب الصغير عبر البوابة الأمامية في حين كان ڤوجيل وويسمان يتبعانهما. أما تومي فبقي خلفهم حتى يغلق البوابة وكأنه راعٍ يدخل قطيعه إلى الحظيرة.

إلا أنه أدخل معه الذئاب، كما كانت تردد كريستابل في قرارة نفسها. ومع كل خطوة كان سانتيسو يخطوها نحوها، كانت أعصابها تزداد توتراً، وأملها في التوصل إلى نتيجة حسنة، يتضاءل.

نظر إليهم بعينيه السوداوين، وهم يقفون على الشرفة، وحدق لبرهة في كريستابل قبل أن يعود ويحوّل بصره إلى اليزابيت التي كانت تتحدث

إليه. فلاحت شبه ابتسامة على فمه تدل على اهتمامه بما تقول.. ترى أكانت أسرة كينغ بمثابة مزحة بالنسبة إليه؟ وهل سيتبدل رأيه فيما بعد؟

أخذ قلبها يخفق بشدة وهو يصعد إلى الشرفة. عرّفته اليزابيت إلى ناثان وميراندا أولاً.. لم يكن هذا الأرجنتيني بمثل طول وضخامة ناثان، بل هو أكثر شبهاً من حيث بنيته بجيرد. ولم يثر ابن اليزابيت الأكبر فيه أي إحساس بالهيبة لكنه حيا ميراندا وقد ومضت عيناه إعجاباً وكأنه في مناسبة اجتماعية.

وأخذ يحدق بجيرد بنظرات أكثر حدة. فأومأ وهو يلتفت إلى كريستابل عن رضاه، مما زاد من توتر أعصابها. كيف يمكنه أن يكون راضياً عن العدائية التي كانت تشعر بها تغلي داخل جيرد؟ لكنها ما لبثت أن أخذت تلوم نفسها على هذه الأفكار الغبية، فرافائيل سانتيسو مولع بالقتال. وكلما كان الخصم صلباً، كلما ازدادت نشوته بالنصر.

ـ كريستابل.. يسرني أن أراك بصحة جيدة.

أثار صوته الرقيق المهذب رعشة في جسمها، ولم تستطع أن تحمل نفسها على الإجابة، فحملقت فيه بازدراء لتظاهره بالإهتمام بصحتها، وتمنت لو تبصق عليه.

رفع حاجباً شيطانياً متسائلاً:

ـ أليست أليسيا معك هنا؟

فردت عليه بحدة وتمرد وقد تملكتها رغبة لا تقاوم بأن تضع حداً لهذا التهذيب الكاذب، وقالت:

ـ كلا. ليست هنا، إنها بعيدة عن متناول يدك، يا رافائيل.

فلم يكن منه إلا أن ابتسم ساخراً وقال:

ـ أرى أن الحديث عن الثقة أشبه بمضيعة للوقت.

فقال جيرد مؤكداً:

ـ بل هو مضيعة للوقت فعلاً.

ولفت التحدّي في صوته انتباه سانتيسو إليه مرة أخرى.

قطع هذا الجدال وصول «هانز فوجيل» و«بيتر ويسمان» وتعريفها عنهما. ثم أشار ناثان إلى الجميع بالدخول.

عاد جيرد ليحيطها بذراعه ويشدها إليه وعيناه تخترقان عينيها بقوة:

ـ أعلم أنك تشعرين بنفسك في مأزق، كما وأعلم أيضاً أن لك قلب نمرة، وسنقاوم معاً حتى النهاية.

قلب نمرة؟ أهذا ما يخفق داخل صدرها بعنف؟ في خضم المخاوف التي كانت تشغل بالها، خطرت لها فكرة.. إنه الوقت الأنسب لتشق طريقها نحو الحرية.

ـ سأحارب، يا جيرد.

وعدته بذلك فرأت ومضة رضى في عينيه.

تحولت غرفة الطعام الكبيرة الرسمية، إلى قاعة لهذا الاجتماع الخطير. وعند دخولها مع جيرد لاحظت أن فوجيل وويسمان يحيطان برافائيل سانتيسو وهو يحتل جانب المائدة الضخمة المصنوعة من خشب الماهوغوني، بينما تكدست أمامهم محتويات حقائبهم الصغيرة.

جلس ناثان على رأس المائدة وميراندا إلى يساره. بينما جلست أليزابيت عند أسفلها وتومي إلى يمينها، وبقي كرسيان شاغران بين تومي وميراندا ينتظران كريستابل وجيرد.

أجلسها جيرد بينه وبين تومي، وكانت ميراندا قد وضعت أباريق من الماء المثلج على الطاولة. فسّرت كريستابل وهي تلاحظ أن الكؤوس حول المائدة قد ملئت، فقد كان حلقها جافاً تماماً. لم تشأ أن تنظر إلى سانتيسو، لكن كبرياءها جعلتها تواجهه. جلس جيرد بجانبها وأمسك بيدها، شابكاً أصابعه بأصابعها، فتدفق في قلب النمر سيل من الثورة.. لن تسمح أبداً لوصي كروجر بأن يدير حياتها، فهي تنتمي إلى جيرد.

إفتتح جيرد الجلسة، وكأنه يبرهن للجميع بأن كريستابل ليست

وحدها:

ـ ما الذي جاء بك يا رافائيل؟

فأجاب هذا الأخير قائلاً:

ـ اعتبارات كثيرة هامة. أريد أولاً أن أعبّر عن عميق سروري لهذه الفرصة التي جعلتني أتعرف إلى أسرة كينغ مجتمعة.

ثم نظر إلى تومي قائلاً: أظن أن خطيبتك سامنتا كونيللي أخذت أليسيا في عهدتها.

ـ نعم. هذا صحيح وستمضي وقتاً ممتعاً برفقة سام.

أجابه تومي بذلك من دون أن يبدو عليه الانزعاج من ذلك الذكاء الحاد الذي أظهره. وتدخل جيرد متحدياً، وكأنه تعمد أن يعيد انتباه رافائيل إليه:

ـ أليسيا لا تعرف شيئاً عن ميراثها، وكريستابل تفضل أن تبقى الأمور على ما هي عليها.

فقال رافائيل:

ـ هذا مستحيل على المدى الطويل.

فأصر جيرد على قوله:

ـ نريد إخفاء الأمر عنها لأطول فترة ممكنة.

شعرت كريستابل بقوة هذا العقل الذي استطاع بدهائه استخدام الوصاية لإثارة الموضوع. لطالما كان كلامه منطقياً، مما جعل محاربته مستحيلة. لقد نسج حوله غشاء غطى كل شيء، فاقشعر بدنها وهي تتوقع أن تلتف الحبال حولها بشكل لا خلاص منه.

قال بنبرة تدل على بعض التعاطف مع هذه الفكرة:

ـ إنه اقتراح هام. إن السبب الأساسي الذي دفعني إلى المجيء، هو التأكد بنفسي من قدرتكم على تأمين الحماية اللازمة لكريستابل وأليسيا معاً، فضلاً عن العيش الرغيد.

كان هذا آخر شيء توقع أي منهم سماعه، وقد حبست أنفاسهم الغطرسة التي كان يخفيها هذا الإدعاء، فامتزج الذهول بعدم التصديق.

دار رأس كريستابل لوقاحة هذه الخطة التي يتهرب بها من أي مسؤولية وذلك بتحميلها لأسرة كينغ. مالت إلى الأمام تريد التعبير عن سخطها، لكن جيرد سبقها إلى الكلام وهو يضغط على يدها.

ـ لا شأن لك بهذا، يا رافائيل. إنه شأني أنا وكريستابل وأليسيا، فأنت لست حارساً لهما.

فأجاب رافائيل برصانة:

ـ لقد وعدت جدَّ الطفلة بتوفير الحماية لهما.

فقال جيرد بحدة بالغة:

ـ وذلك لتضمن بقاء ميراث كروجر بأمان بين يديك.

فرفع رافائيل رأسه بكبرياء:

ـ إنه أكثر أماناً بين يديّ منه بين يدي أي شخص آخر.

ضرب جيرد بيده على المائدة، قائلاً:

ـ عظيم، لكنك لن تأخذ كريستابل وأليسيا رهينتين لمصالحك الشخصية أو المالية. لقد تحررتا الآن، وستحافظان على حريتهما.

مال رافائيل إلى الأمام وعيناه تلمعان ازدراء:

ـ ولكن هل تحررتا من الآخرين، يا جيرد؟ هل تتصور أنني الوحيد الذي لديه مصالح شخصية ومالية في ميراث كروجر؟ إن أليسيا رهينة عند كل شخص يريد قضمة منه.

فمال جيرد إلى الأمام بدوره:

ـ إنك أكثر شخص تخشاه كريستابل، حتى أنها هربت منك.

فلوح رافائيل بيده رافضاً ذلك:

ـ هذا تفكير خاطئ.

ـ أوضحه إذن، يا رافائيل، وعلى الفور.

استند جيرد إلى الخلف، متظاهراً بالإصغاء، لكنه ترك الجوّ بينه وبين رافائيل سانتيسو مشحوناً بالتشنج والتحدي. وراحت كريستابل تزداد توتراً وقد تملكها الغضب حين قال رافائيل إن تفكيرها كان خاطئاً، فاستعدت لمواجهة أي توضيح زائف قد يدلي به.

قطب رافائيل جبينه برهة وكأنه يستجمع أفكاره، ثم قال وهو يفتح يديه وكأنه يظهر أن ليس لديه ما يخفيه:

ـ أصغوا إليّ جيداً... عند وفاة بيرنهارد كروجر، لم ترق الترتيبات التي وضعها في وصيته لمجموعتين بالغتي النفوذ في الشركة.. كان الوضع آنذاك.. بالغ الخطورة.

والتفت نحو كريستابل مستطرداً:

ـ إن الاحتياطات التي اتخذتها لحمايتك وأليسيا كانت ضرورية، كنت أعلم أنك ستشعرين بنفسك سجينة، وتعتبرينني سجانك.

وهز رأسه ثم تابع قائلاً: «ولم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً لأغير رأيك، لأنه كان صحيحاً حينها. كنت أرى أنها الوسيلة الوحيدة التي يمكنني بها تأدية واجبي بصفتي وصي بيرنهارد المكلّف».

إن كان يحاول كسب تعاطفها، فقد وقع على أرض حجرية، إذ حدقت كريستابل به لا مبالية. كانت واثقة من أن يديه ملطختان بدماء لورنس، وتخطيطه لقتل أليسيا أيضاً مسألة وقت فحسب.

أخذ ينظر إليها، مصمماً على النفاذ إلى أعماقها. وحين أدرك تصميمها على المقاومة، قال وهو يزن كلماته:

ـ كنت أكثر وعياً منك بالنسبة إلى القسوة التي تُسلب بها حياة الإنسان خاصة إن كان صاحب ثروةً.

أتراه ينذرها؟ أم يهددها؟

ثم سكت.. أتراه يبحث عن الخوف في عينيها؟ شعرت كريستابل بنبضها يتسارع، لكنها لن تستسلم لأي ضغط منه، فجيرد وشقيقاه

سيضعون حداً لذلك بأي شكل كان.

تابع رافائيل يقول بصوت ناعم:

ـ أتذكرين لورنس؟

هل يذكّرها بموت زوجها؟ هل يهددها بأن يلقى جيرد المصير نفسه إن لم تذعن؟

ـ لم يمت زوجك في حادث الاصطدام، يا كريستابل.

دفعتها صدمة اعترافه الصريح إلى الانفجار قائلة:

ـ لم أصدق ذلك يوماً.

لم تستطع أن تُسكت صوت الحقيقة في صدرها، السؤال الوحيد الذي كان يطرح نفسه هو.. من الذي كان وراء إبعاده عن رأس هرم السلطة في كروجر؟ والجواب... وقفت، راغبة في القتال، وفي إرغامه على الاعتراف بالمزيد. ثم أضافت:

ـ الجواب يا رافائيل.. كان مكتوباً في النتيجة.

ضغطت بقبضتيها على المائدة وهي تميل فوقها، وتصرخ بالمنطق الذي لا يمكن أن ينقضه الرجل الذي استفاد أكثر من غيره من وراء موت لورنس وأكملت قائلة:

ـ لقد خدم موته أغراضك بشكل جيد جداً، وجعلك تحل محله على رأس الشركة، وهذا ما جعلك مباشرة في وسط دائرة كروجر، إذ سنحت لك الفرصة للفوز بثقته، وقد قمت بذلك على أكمل وجه، يا رافائيل.. أعني الفوز بثقة الناس. لقد حصلت على كل شيء، أليس كذلك؟ وقبل أن تبلغ أليسيا الثامنة عشرة، ستجد، دون شك، طريقة لإبعادها، بدورها، عن طريقك.

لم يتأثر مطلقاً وهي تلقي هذه الاتهامات في وجهه بل عاد وجلس في مكانه محتفظاً برباطة جأشه.

لف السكون المجتمعين حول المائدة.. سكون يخطف الأنفاس،

سكون يسمع فيه وقع الإبرة. أدركت كريستابل أنها كانت ترتجف فجلست وهي تلهث وكأنها قطعت أميالاً طويلة ركضاً، فأمسك جيرد بيدها يطمئنها.

سعل فوجيل وهو يميل إلى الأمام وكأنه على وشك الاحتجاج. كان رجلاً ضخم البنية، أصلع الرأس، مستبد الطبع، لا يتقبل الخداع. حملقت كريستابل فيه، رافضة اعتبارها مجرد نكرة.

رفع رافائيل يده ببساطة قائلاً:

ـ كنت أنا العدوّ اللدود إذن طوال هذا الوقت؟

قال ذلك متأملاً، ثم جال ببصره على الحاضرين متسائلاً:

ـ هل صدقتم جميعاً اتهام كريستابل لي بقتل زوجها؟

التزم كل من ناثان، ميراندا، جيرد وتومي الصمت وهم ينظرون إليه من دون أن يتفوه أحدهم بكلمة تخفف عنه.

قطعت أليزابيت الصمت قائلة، والصدمة واضحة في لهجتها:

ـ لم تعلمني بذلك، يا جيرد.

فأجاب جيرد بهدوء:

ـ لم أعلم بالأمر حتى الليلة الماضية، ولم يكن لهذا صلة بالإجراءات التي اتخذناها هذا الصباح. أردتك أن تحضريه إلى هنا، لأنه أفضل مكان نعالج فيه الوضع. لقد اتفقنا جميعاً على ذلك.. إنك تعلمين الآن حقيقة الموقف..

ثم أضاف:

ـ دعيه يجيب على هذا الإتهام.

أحست كريستابل بنبرة قاسية في صوت جيرد تؤكد بأن رافائيل في مأزق، فشدّت على يده وقد ارتفعت معنوياتها لوجوده بقربها.

هز رافائيل سانتيسو رأسه وكأنه لا يصدق أنه وقع في هذا الموقف، وراح يجول ببصره على ناثان وتومي وهو على ثقة بأن الأخوة كينغ

مستعدون لمقاضاته. وتساءلت كريستابل عما إذا كان يتذكر المناطق التي طار فوقها في طريقه إلى هنا، وما إذا كانت عزلتها قد أزعجته.

ثم استقرت عيناه عليها مرغمة إياها على الاستيقاظ من شرودها. إنه يظنها العنصر الأضعف بينهم، ولكنها توعدته بصمت بألا تكون كذلك اليوم بالذات.

ثم قال بلهجة خالية من الحدة أو القسوة:

ـ لقد أحسنت إخفاء شكوكك، وإلا لكنت بددتها لك، أو طلبت من بيرنهارد أن يفعل ذلك.

ردّت عليه مؤكدة على شكوكها:

ـ إنك تعلم جيداً أن بيرنهارد لا يستطيع الآن أن يتحدث عنك.

فهز كتفيه:

ـ سنتحدث سلسلة الأحداث بدلاً منه. في الواقع تعمدنا إبعادك عما كان يحدث، بسبب حملك فقد كانت صحتك وصحة الطفل تهمنا كثيراً.

إنه عذر منطقي آخر.. فهاجمته ترد عليه:

ـ عندما نقلت ظنوني إلى بيرنهارد في ما يتعلق بالحادث، رفض ما قلت، يا رافائيل. لماذا عليّ أن أصدق ما تدعيه؟

ـ كان هذا عمل رجال، يا كريستابل. كنت شابة صغيرة في الثانية والعشرين، وقد عشت تحت جناح بيرنهارد ثلاث سنوات تقريباً، هل تتصورين حقاً أنه قد يناقش معك مسألة قتل ابنه والميراث؟

لزم الصمت فترة ليعطيها فرصة لتتذكر تعالي الرجل العجوز، ورأيه المحدود في كنّته، ثم نطق بالحقيقة التي لم تستطع إنكارها، حيث قال:

ـ إن الوظيفة الوحيدة التي كنت تشغلينها عند بيرنهارد كروجر هي أن تكوني أماً جيدة لحفيدته.

ورقّ صوته وهو يضيف:

ـ وهل لي أن أقول إنك كنت ممتازة من هذه الناحية؟

أشاحت كريستابل على الفور بوجهها غاضبة. فقال جيرد متدخلاً، ببرودة:

ـ أعلمك بأن تكرار الحديث عن موقف بيرنهارد من كريستابل غير مقبول. ففي هذه المسألة، من الأفضل قول الحقيقة بدلاً من استخدام الكلام العاطفي الذي يعزز من وضعها كوالدة ألبسيا، ويتغاضى عن كونها إنساناً له حقوقه.

اندهشت وهي تسمع جيرد يعبر عن مشاعرها بدقة، وشعرت بارتياح عميق لهذا التقارب بينهما.

رفع رافائيل حاجبيه متحدياً كريستابل:

ـ أتراني لخّصت وضعك بدقة في منزل كروجر؟

أجابته بمرارة وقد استشاطت غضباً من معاملته لها وكأنها قطعة أثاث:

ـ نعم وذلك قبل وفاته وبعدها واستلامك زمام الأمور.

ثم أضافت:

ـ كنت صغيرة جداً وساذجة حين قبلت الزواج من لورنس، لكنك استغليت ذلك حينها على أكمل وجه.

ذهل وهو يصغي إلى تفسيرها بهذا الشكل للدور الذي قام به:

ـ كان ذلك خيارك، يا كريستابل.

ـ تحت ضغط أبويّ.

واتهمته عيناها بحرارة بأنه من ضغط عليها وتابعت تقول:

ـ لقد اتفقت مع والدي على ذلك. لا تزعج نفسك بالإنكار. إذ اعترف هو بذلك بعد هروبي إلى ريو دي جانيرو ملتمسة المساعدة من أسرتي، فقد وعدته بمتجر أكبر وأفضل للمجوهرات مقابل ابنة تنجب وريثاً آخر لكروجر.

سمعت صوت حركة من ناحيتها عند المائدة، فأحست باهتمام بالغ

بكلامها. لم تكن قد ذكرت هذه المسألة لأحد من قبل، خجلاً من كشف حماقتها وسذاجتها. ولكنها وجدت نفسها مضطرة لذلك الآن.

وعندما تنبه رافائيل إلى أنها سكبت المزيد من الوقود على النار، التي كانت تضرمها تحته، حاول تبرير موقفه على الفور:

ـ تعلمين جيداً أن الأسر العريقة في أميركا الجنوبية تتبع هذه الطريقة لتزويج أولادها، وقد انتُدبت لدفع مهر العروس، وهذا كل ما فعلته. لكن الخيار كان خيارك ويبدو أنك انسجمت يومها مع لورنس.

ـ لقد سبق وعلقت بنفسك على أنني كنت يافعة حينها، يا رافائيل. لقد خُدعت، وأُحطت بالتزلف والإطراء وملأوني غروراً، كما قُهرت أيضاً. لكنك كنت تعلم أي نوع من الرجال كان لورنس، وإلى أين كنتم تقودونني.

فهز رأسه قائلاً:

ـ كل ما كنت أعرفه عنك، حينذاك، هو أنك اعتبرت هذا الزواج صفقة مربحة، فنساء كثيرات يجدن فيه جوازاً إلى حياة يُحسدن عليها. كان ذلك قرارك، يا كريستابل.

ـ وأنا واثقة من أنك وجدته مربحاً.. عروس من أميركا الجنوبية رضي عنها بيرنهارد كروجر. لقد صعدت درجة أخرى من السلالم.

عيل صبره من مجادلتها، فأجاب بإيجاز:

ـ لم يكن لذلك تأثير على وضعي الذي لم يتغير إلا بعد موت لورنس.

فانفجرت فيه قائلة:

ـ وورثت عندها كل شيء، إنها وجهة نظري كلياً.

ـ ما عدا أنها مبنية على أساس زائف، إذ لا علاقة لي بموت لورنس، يا كريستابل.

ـ أثبت ذلك.

زاد طلبها هذا من التوتر الذي كان يلف الغرفة، وكأنه سيخترق

الجدران. وظهر الغضب جلياً على وجه رافائيل سانتيسو، وفي نبرة صوته وهو يسألها:

ـ هل أنت مستعدة للإصغاء الآن؟

فردت عليه بحدة:

ـ بكل تأكيد! أريدك أن تعرض (سلسلة أحداثك).

وجالت عيناه الملتهبتان على أفراد أسرة كينغ وقال:

ـ أدركت أن كريستابل كانت بحاجة إلى التعبير عن شكوكها التي سممت أفكارها لمدة طويلة. لكنها لا تتعدى ذلك. إنها مجرد شكوك.. لها في وضعها ما يبررها، إلا أنه من الصعب إبراز برهان على ذلك. أرجوكم أن تتذكروا ذلك جيداً.

والتفت إلى المحامي بجانبه وقال:

ـ هانز، أخبرهم بما حصل.

كان المحامي في السبعين من عمره، وقد خدم مدة طويلة في شركة كروجر، وهو على علم، من دون شك، بكثير من الأسرار. وبقدر ما كانت كريستابل تكرهه، أثارت ثقة رافائيل فيه فضولها.

أخذ فوجيل يتلو عليهم بصوت رتيب:

ـ كان بيرنهارد يشك بأن المركب الذي انفجر وقتل لورنس كان عملاً تخريبياً. فعرض مكافأة كبرى لمن يكشف له عن هوية المخربين. عندها، تطوع الرجال المسؤولون مباشرة عن مقتل لورنس، للإفضاء باسم الرجل الذي استأجرهم مما رفع النقاب عن مؤامرة داخل شركات كروجر المتحدة نفسها. إذ كانت جماعة معينة تخطط لاقتسام الأرباح، مما يعود على أفرادها بمبالغ طائلة.

سكت ونظر بعينيه الزرقاوين اللامعتين إلى كريستابل ثم أضاف:

ـ كانت هذه المجموعة متمركزة في جنوب أفريقيا، وليس لها أي علاقة بأميركا الجنوبية.

فذكّرته كريستابل بسرعة:

ـ لقد انفجر المركب في البحر الكاريبي.

ـ البحر الكاريبي هو مكان دولي للهو.

وكان عليها أن تسلّم جدلاً بذلك.

تابع هانز ڤوجيل كلامه دون توقف تقريباً، وعيناه تخترقان التحفظ الساخر في عينيها:

ـ سمع لورنس إشاعة عن مؤامرة في إحدى الحفلات، وبدلاً من أن ينقل ما سمعه إلى أبيه، أخذ يطرح أسئلة صريحة، ومباشرة، وكنت أنت متزوجة منه. ولا بد أنك كنت تعرفين أنه كان يحب التظاهر، والتباهي بنفسه، مما جعله يرتكب خطأً مميتاً.

نعم، كانت تعلم ذلك. فقد كان لورنس يشعر ببهجة عامرة عندما يخبر أباه أمراً يجهله، متباهياً بنفسه، فسألت:

ـ هل أعرف أياً من المتآمرين؟

فهز ڤوجيل كتفيه:

ـ أشك في ذلك، لديّ قائمة كاملة بالأسماء في خزانة مكتبي الحديدية، ويمكنني أن أؤكد لك أن رافائيل سانتيسو ليس واحداً منهم، ولكن بإمكاني تقديم التقارير إذا شئت. من المستحيل، على أيّ حال، أن تتمكني من التحدث مع أي من الأشخاص المدرجة أسماؤهم على القائمة عن هذه الظروف.

ـ ولما لا؟

ـ لأنهم ماتوا جميعاً، في حوادث مختلفة. إنها يد العدالة، أليس كذلك؟

أو يد العجوز تصب انتقامه على أولئك الذين وافقوا على قتل ولده! كان من المفترض أن تُصدم لما سمعته، ولكن الغريب أنها شعرت بأن هذا كله لا يعنيها وكأنه آتٍ من عالم آخر لا تريد العودة إليه.

أما بيتر ويسمان، المحاسب السويسري، وهو رجل نحيل، شاحب الوجه في الخمسينات من عمره، تفيض من وجهه الرقة والانضباط فقال:

ـ إذا أردتم إثبات ما جرى، بعد التحريات التي قام بها بيرنهارد...

ونظر إلى الأخوة كينغ وأضاف:

ـ بصفتكم رجال أعمال، فسأدع الكلام للأرقام المالية. إن إعادة تنظيم فرعنا في جنوب أفريقيا عملية مثيرة للغاية، وتتعلق مباشرة باستبعاد الاتحادات الفاسدة كلها وبناء مجموعة جديدة متشابكة. فإذا شئتم مراجعة السجلات الخاصة بها، يمكنني إبرازها لكم.

قطبت كريستابل حاجبيها إزاء هذه الحقائق المرهقة، وقد ثارت ثائرتها لتكسر اتهاماتها لرافائيل سانتيسو على صخور هذه المعلومات السرية الموثوق بها. إذ يمكن الكشف عن أسماء المتآمرين وإثبات موتهم رسمياً، ولا بد أنها مخطئة بالنسبة إلى اشتراك رافائيل سانتيسو في مقتل لورنس. فثمة براهين كثيرة تشير إلى تورط سواه.. إنها براهين ثابتة، وليست مجرد شكوك مبنية على إعطائه حق الوصاية على ميراث كروجر.

تحرك جيرد بجانبها، ثم قال ببطء:

ـ هل أفهم منكما أن حقيقة مقتل لورنس كُشفت قبل وفاة بيرنهارد كروجر وتمت معالجتها؟

فأجاب ڤوجيل:

ـ نعم. لقد أزيلت المؤامرة فور اكتشافها وذلك بكفاءة بالغة.

وقال بيتر ويسمان مؤكداً:

ـ لقد استغرقت عملية إعادة التنظيم وقتاً أطول، لكنها انتهت وحظيت برضى بيرنهارد كروجر قبل وفاته.

فقال جيرد باحترام:

ـ شكراً، إننا نقدر لكم صدقكم وتعاونكم، في الكشف عن هذه المعلومات الحساسة.

ثم مال إلى الأمام مريحاً ساعديه على المائدة، وعيناه على رافائيل سانتيسو ثم أضاف:

- بقي لديّ سؤالين.

- هات ما عندك.

دعاه رافائيل إلى ذلك بإيجاز، وقد دلت لهجته على استعداده للإجابة على أي سؤال.

- بما أن المؤامرة قد كشفت وانتهى أمرها تماماً.. لماذا كنت حريصاً على تأمين الحماية لكريستابل وأليسيا عند استلامك المسؤولية بعد وفاة بيرنهارد، فأصبحت بالتالي سجانهما. ولماذا لم تحترم خيارها، وقرارها... كما فعلت عندما تزوجت لورنس كروجر؟

توقف جيرد لبرهة، ثم عاد يضيف بهدوء:

- عليك ألا تنسى أن لكريستابل الحق في اختيار الحياة التي تريدها، وبصفتها أم أليسيا فهي الوحيدة التي يسعها اختيار الأفضل لابنتها، وهذا هو همنا الأساسي. ولكننا لم نفهم بعد ما هو همك أنت وما هو الهدف من تدخلك غير المرغوب فيه في حياة الآخرين؟

بدت الصرامة في كلمات جيرد.. وبالرغم من أنه تكلم بنبرة هادئة إلا أنها كانت تخفي وعيداً خطيراً. فكلماته تلك هي من جوهر القضية ولا التباس فيها وينبغي الإجابة عليها.

نظرت كريستابل إلى رافائيل سانتيسو، وقد غمر الحب الذي تكنه نحو الرجل الجالس بقربها كيانها، فلاحظت أنه وقع في مأزق لا مهرب منه..

لا مفر.. بقيت تفكر في ذلك وقد تملكتها الحيرة وهي ترى أن هذه الكلمات أصبحت تنطبق على من كان يبدو لها مثالاً للجبروت. لعلها أصبحت هي وأليسيا، حرتين الآن.. أم أنها تأمل الكثير؟ وقبل الأوان؟

* * *

١٣ ـ الحارس الخفي

كان جيرد يعلم أنه يواجه أكبر امتحان في حياته. لقد سبق وتعامل مع الكثير من رجال الأعمال السفاكين في تجارة اللؤلؤ، إلا أن هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا من مستوى مختلف. لأنهم قبلوا، ظاهرياً، ومن دون طرح أي سؤال، قسوة الإبادة الكاملة لأفراد المؤامرة المسؤولين عن موت الابن، من دون مراعاة درجة ذنب كل منهم.

وبالرغم من أن كريستابل لم تكن على علم بتلك الإجراءات المتطرفة، إلا أنها أدركت ما يسعهم فعله.. إنها سلطة لا تمتثل لغير قانونها الخاص، مهما كلف ذلك.

ورغم أن رافائيل سانتيسو لم يلطخ يديه بدماء زوجها، فهل يمكنها، غريزياً، أن تأتمنه على حياة أليسيا؟ وهل يقرّ بأن الطفلة ليست ابنته ليخضعها لمشيئته؟ حتى وإن فعل ذلك فهل تصدقه؟

أخذ جيرد يراقب الرجل باهتمام وهو يفكر في السؤال الموجّه إليه، كيف انجذبت أمه إلى هذا الرجل، ولم تأخذ قيكي خان حذرها منه.. بالرغم من أن غريزتهما مرهفة جداً إلى حد يجعلهما تلاحظان أي خلل في الاستقامة؟ ولكن تجارب جيرد في الحياة علمته أن لا يثق ثقة عمياء بحكمهما على الأشخاص.

قال وقد بانت النزاهة في تقييمه:

- ربما بالغت في حماية كريستابل وأليسيا ولكنني غير نادم على ذلك.

www.elromancia.com

إذا كانت احتياطاتي مبالغ فيها، فذلك لأنني كنت أرزح تحت ثقل مسؤولية حمايتهما، خاصة بعد أن عرفت ما حدث للورنس، وكنت أدرك تماماً بأنني لست مثل بيرنهارد. فكل من كان يهاب جبروته كان على استعداد تام لاختبار قوتي.

استلم الدفة رجل مختلف.. نائب حل محل الربان القديم.. نعم، إن جيرد يعي أن الضغط للمضي في مهامه ضروري.

تدخل فوجيل وقد التوت شفتاه اشمئزازاً:

ـ لم يكن بيرنهارد قد استقر في قبره، بعد، حين راح قادة جماعات منشقة قوية داخل منظمة كروجر يطعنون بوصيته. فقد كانوا يعتقدون أن العرش أصبح لهم بعد موت الملك، ولم يأخذوا الوصي القانوني الوحيد للميراث الذي عيّنه بيرنهارد بعين الاعتبار.

وتحول وجهه المتجهم إلى كريستابل:

ـ إنك مدينة لرافائيل بأكثر مما تعلمين، ولكن بالنسبة إليه..

فارتفعت يد تسكته:

ـ هذا يكفي، يا هانز، فالسجن الذي وجدت كريستابل نفسها فيه لم يكن من صنعها.

وأدار رافائيل نظراته الحائرة إليها وقال: لا بد أن خوفك مني زاده سوءاً. لقد أحسست بكراهيتك لما كنت أمثله، وبسخطك على ما فرضته عليك، ولكن...

وهز رأسه مضيفاً: ولكنني لم أر يوماً في عينيك نظرات خوف.

فأجابت بكبرياء:

ـ ما كنت لأظهر ضعفي أمام جبروتك.

أومأ رافائيل مفكراً، وعاد ينظر إلى جيرد قائلاً:

ـ سبق وقلت إننا مررنا بأوقات عصيبة بعد موت بيرنهارد.. فقد حسب الكثيرون في المنظمة أنه أصيب باضطراب عقلي إثر مرضه وحزنه

على ابنه. وتوقعوا أن يعين مجلس وصاية لإدارة الميراث، وليس وصياً واحداً فحسب، فكان من الطبيعي أن يكثف الرقابة المفروضة على أليسيا.

وبدا في عينيه تحدٍ ساخر:

ـ ماذا كنت ستفعل أنت، يا جيرد، لو كنت مكاني؟ هل كنت ستترك كريستابل وابنتها تتعرضان للخطف والمطالبة بفدية لإطلاق سراحهما؟ أتجازف بحياة أليسيا؟ إن موتها يهدم كل ما بناه بيرنهارد.. وهذا يفيد مصلحة البعض.

تنبه جيرد إلى أنه أخذ المبادرة البارحة من تلقاء نفسه حين اصطحب كريستابل وابنتها إلى «جنة كينغ» من دون استشارتها.. فعل ذلك عن حسن نية لاعتقاده بأنه أعلم منها بضمان سلامتهما. ولكن هذا المكان قد يتحول سجناً مع فارق وحيد هو أن كريستابل لا تخشاه كما تخشى رافائيل، بل تريد أن تبقى معه.

فأجاب ببطء:

ـ كنت سأفعل مثلك، وأحيطهما بحمايتي.

فقال رافائيل بسرعة وقد لمعت عيناه سروراً:

ـ كما تفعل الآن.

فأجابه جيرد على الفور:

ـ لكنني لست مستبداً مثلك، فأنت أردت أن تصون الميراث من دون أن تأخذ نوعية الحياة التي تعيشها كريستابل بعين الاعتبار.

ـ كان لديها حياة على الأقل.

ـ حياة لا تطاق.

فأومأ رافائيل متنازلاً:

ـ لقد أدركت ذلك فعلاً، يا جيرد، عندما هربت كريستابل.. أظنها كانت يائسة جداً لأنها على علم بالمخاطر التي قد تتعرض لها من دون حراسة.. حسبت في البداية... عندما أدركت أن مجوهراتها قد اختفت

أيضاً، تنبهت إلى أنها محاولة شخصية للتحرر.

وأسند ظهره إلى الكرسي وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة متأملة ثم سأله:

ـ ما الذي كنت ستفعله.. لو كنت مكاني؟ أتتركها تذهب؟ أم تبحث عنها وتعيدها؟ ماذا يا جيرد؟

لمعت حقيقة ما فعله رافائيل في باله بسرعة البرق، وأدرك في الحال سبب قدومه إلى هنا واجتماعه بأسرة كينغ، فتملكه ارتياح بالغ... إن كريستابل وأليسيا في أمان، وأمه وڤيكي خان لم تنخدعا به.

تنفس الصعداء ثم رمق من كان عدواً لكريستابل لمدة طويلة بنظرة تنم عن احترامه له لما أظهره من أمانة ونزاهة. استطاع الرجل الذي حمل المسؤولية على كتفيه بالتزام كلي، محاولاً التخفيف من حدة هذا الالتزام بالإنسانية، أن يثير إعجاب جيرد به. إلا أن الشيء الوحيد الذي فات رافائيل هو خوف كريستابل منه، إما لأنها أحسنت إخفاء ذلك عنه، أو لأنه لم يكن لديه أدنى فكرة عن الصورة التي طبعتها في ذهنها عنه.

سأله جيرد:

ـ هل تحمل التقارير معك؟

لمع الاحترام في عيني رافائيل على الفور. لقد ساد التفاهم بين الرجلين، على قدم المساواة.

فالتقط ملفاً مليئاً بالأوراق، من بين الكومة التي أمامه ودفعه إليه عبر المائدة، وقال:

ـ تجد فيه موجزاً للأحداث، إن كنت تريد المزيد من التفاصيل سيزودك فوجيل بها.

أومأ جيرد وهو يأخذ الملف وينهض واقفاً:

ـ أكون شاكراً لو تابعت الحديث مع أسرتي عن الإجراءات الأمنية ريثما أتحدث مع كريستابل على انفراد.

ـ سأفعل ذلك وأزودهم بالإيضاحات كافة.

ـ شكراً.

فابتسم رافائيل:

ـ جميل أن يعرف المرء، أولاً، مزايا الرجل الذي سيستلم مهمته.. مهما كان ما سيقوم به...

استدار جيرد ليساعد كريستابل على الوقوف وقد بدا عليها الارتباك البالغ. فقال يطمئنها:

ـ لا بأس، سنعود في الحال.

ـ قبل أن تذهبا..

فعاد انتباههما إلى رافائيل الذي كان ينظر إلى كريستابل بحدة:

ـ لم أكن أعلم بخوفك مني، يا كريستابل، ولكن هذا دفعك لاتخاذ الحذر، فلم تجذبي إليكما انتباه أي شخص غير مرغوب فيه. أريدك أن تعلمي أنني بعد رحيلك أحكمت سيطرتي على منظمة كروجر، وقمعت فيها كل خطر يهددكما. أما المخاطر الخارجية فموضوع مختلف وسنناقشه في ما بعد.

هزت رأسها وقد تشوش ذهنها وهي تراه يتحول من عدوّ إلى حليف. أمسك جيرد بيدها وأخرجها من غرفة الطعام، وكأنه يريد إبعادها عن ذلك الجوّ المشحون بالاتهامات، الذي يثير فيها ذكريات ما عانته. إنها بحاجة إلى الإحساس بالحرية، لتتبع قلبها من دون خوف. وكان جيرد يعلم أنه أصبح الآن قادراً على منحها ذلك.

أخذها إلى الشرفة المحيطة بالمنزل، لتتنشق الهواء النقي وتستمتع بمنظر أراضي «جنة كينغ» الفسيحة واللامتناهية. إنها أرض أجداده، كما أخذ يفكر، وقد تملكه الفخر بإرثه هذا. وبعد ما آل إليه، وأصبح له، عليه أن يبقي كريستابل هنا.. وكم سيسعده ذلك.

سألته بقلق:

www.elromancia.com

ـ ما هي تلك التقارير؟ لماذا أتيت بنا إلى هنا يا جيرد؟

سألها وهو يبحث في عينيها عن نظرات شك:

ـ أما زلت تؤمنين بأن رافائيل كان وراء مقتل لورنس؟

تنهدت ثم قالت مكشرة:

ـ لا، لكنني ما زلت أظنه خطراً.

فأكد لها بثقة بالغة:

ـ نعم، بالنسبة لأي شخص يتعدى الحد الذي يضعه. ولكن ليس بالنسبة لك أو لأليسيا، يا كريستابل.

فصرخت، وما زال خوفها القديم يبعث الإضطراب في نفسها:

ـ وما أدراك؟

ـ لأنه كان يحميك طوال تلك المدة، هذا مدون في هذه التقارير. لقد تركك تعتقدين بأنك حرة لأنك كنت متلهفة إلى الحرية، لكنه كان يراقبك طوال الوقت يا كريستابل، وقد جاء الآن ليتأكد بنفسه من أنني أصلح لاستلام الرقابة منه.

استدارت تواجهه بحدة واضطراب بالغين وقالت:

ـ أكان بإمكانه أن يعيدني وأليسيا إليه في أي وقت يشاء؟ أهذا ما تريد قوله؟

فأومأ قائلاً:

ـ منذ وصولك إلى ريو دي جانيرو، وإدراكه أنك أخذت مجوهراتك معك أصبح بإمكانه أن يضع أسرتك تحت المراقبة.

شحب وجهها وقالت بفتور:

ـ طوال هذا الوقت.

ـ أراد الاطمئنان على سلامتكما والمحافظة على الحرية التي تبحثين عنها في آن معاً.

فهزت رأسها، وهي تنظر إلى الملف الذي يحمله:

ـ لا أصدق هذا، أرني الملف، أريد أن أرى ما فعل.

فأحاط كتفيها بذراعه:

ـ ثمة منضدة على الشرفة الوسطى، سنجلس عليها وتقرأين ما تريدين.

سارت معه وهي تكرر مذهولة:

ـ كل هذا الوقت.. وهو يعلم؟

ـ نعم، وأتصور أنه كان يعبّد الطريق أمامك أينما استطاع.

جلسا حيث اعتادت أسرته أن تجتمع لتتأمل غروب الشمس.. لم تكن الساعة قد تجاوزت الظهر بكثير، إلا أنها أحست وكأنها وصلت إلى نهاية الطريق الطويل الذي قطعته فراحت تنشد الراحة.

لم يقرأ التقارير، إنما أخذ يستمع إلى تعليقات كريستابل عليها وقد استحال عدم تصديقها إلى تفهّم تشوبه الرهبة، فكل شيء مدون أمامها.. كيف كان يسهّل هربها ويتخذ الاحتياطات الممكنة لتيسير الحياة لها ولأليسيا، كي لا تشعرا بأي ظلم أو انقباض.

لم تكن جوازات السفر الصادرة باسم فالدز مزورة، كما كانت تعتقد، فقد رتب رافائيل الأمر ليغير اسم كروجر بشكل قانوني إلى اسم فالدز كما أرادت. وحيثما باعت مجوهراتها، كان رجاله يحرصون على أن يدفع لها ثمنها الحقيقي.

كانت وأليسيا محاطتين بحراس شخصيين.. حتى في بروم، كان أصحاب العربة المتوقفة بمحاذاة عربتها مكلفين بمراقبتهما.

وثمة تقرير عن أسرة كينغ.. تاريخها وأملاكها.. وتقييم لردة فعلها المحتملة تجاه ميراث أليسيا، إذ تبين لهم أنه لن يؤثر على حياة الأسرة، لأن ملوك كمبرلي متجذرين في أرضهم ولن يتخلوا عنها.

قالت بأسف:

ـ أترى؟ لم يتوانوا عن التجسس على حياتك وحياة أسرتك، يا

جيرد.

وأخذت تنظر في عينيه تنشد أن يطمئنها، هل تريد متابعة ذلك حقاً؟

- مهما يكن الأمر، يا كريستابل، لقد جاؤوا إلى هنا لمناقشة الوضع بالنسبة إلى ميراث أليسيا.. فويسمان يهتم بالقضايا المالية، وڤوجيل بالقضايا القانونية، أما رافائيل فبالقضايا الأمنية.

ومدّ يده يمسك بيدها ويبعث فيها قوته، مصمماً على أن يحلّ المشكلة بأفضل طريقة ممكنة.

تنهدت وقد بدت في عينيها نظرة اعتذار وقالت:

- كم كنت مخطئة في فهمي للأمور!

- ليس في ما يتعلق بي، فقد كنا معاً على صواب.

وابتسم يخفف عنها:

- أتذكرين ڤيكي خان؟

- نعم.

- إنها عجوز بالغة الحكمة، لقد قالت لي مرة، وأنا أذكر كلماتها جيداً: بنت كريستابل ڤالدز حولها جداراً قوياً من الاستقامة لا يمكن تحطيمه. وأظنها تفعل، دوماً، ما تعتقده صواباً.

تألق السرور في عينيها الكهرمانيتين، وقالت:

- شعرت بها تحدق بي مطولاً.. أتراها كانت تحاول أن تقرأ ذلك؟

- لم تخطىء يوماً في حكمها على الناس. أسألك.. أيمكنك..

ونظر في عينيها مفرغاً كل حبه في صوته ثم أضاف:

- هل تعتقدين بأن ذلك صحيح؟

أراد أن يمسكها..

سألته وهي ترتجف بينما وقف هو يأخذها بين ذراعيه:

- أعتقد ماذا؟

- أريد أن أسمعك تقولين أن زواجنا عمل صائب، يا كريستابل.

ثم أضاف بعاطفة محمومة لم يقو على السيطرة عليها:

- هذا ما أريد سماعه منك.

لم يكن ما في نبرته أمراً، أو تضرعاً، بل يقيناً يشتعل في فؤاده وهو يردد الكلمات التي يريدها أن تقولها:

- لأن هذا ما تشعرين به أنت أيضاً.

* * *

www.elromancia.com

١٤ ـ درج القمر

ومضت ستة أشهر..

ـ كم تبدو ماما جميلة!

ابتسمت ڤيكي خان للطفلة التي ركزت اهتمامها على أمها وقد بدت غاية في الجمال. كانت تزين رأسها بإكليل مرصع باللؤلؤ، شأن عرائس عائلة كينغ كلهن، وقد ثبّت النقاب عليه. ووضعت حول عنقها عقداً رائعاً من اللؤلؤ بينما رصعت أحجار الماس صدر ثوبها الذي كان يعلو تنورة فضفاضة من التافتا تموج حولها بروعة وإغراء. زرع مظهر كريستابل البهجة والسرور في قلب جيرد.. لم تخطىء فيكي بشأنه.. فقد تحول الصبي الصغير إلى رجل ممتاز. كان تومي مثار سرور لمن يعرفه، وناثان نسخة عن لكلان والده. أما جيرد فكان دوماً المفضل لديها.. إنه بالغ الحساسية والفطنة منفتح الذهن، مفعم بالحيوية وحب الحياة. يؤمن مثل الصينيين بأن طبيعة الإنسان تتألف من الخير والشر، بينما القوى غير المنظورة تؤثر، مع ذلك، على النتائج الهامة.. إن بالنجاح أو الفشل.

كان جيرد يعرف كيف ينتصر، وذلك بالبديهة والغريزة. علت وجهه هذا المساء علامات النصر، وقد بدا وسيماً في بذلته الرمادية الفضية الرسمية، وقميصه الأبيض المنشاة، وربطة عنقه الحريرية..

كانت فخورة بهذا الرجل، الذي فضّل أن يقيم العرس هنا في بروم،

لترى المدينة بأكملها فتاها وعروسه.. وستبقى ذكرى هذه المناسبة في الأذهان لمدة طويلة، وسيتردد صداها بين أصدقائها القدماء. وقد وقع الاختيار على فندق «مانغروف» المشرف على «خليج روباك» لإقامة الحفل فيه.

ـ أليسيا كينغ.

مالت الطفلة برأسها تتأمل اسمها الجديد. ورفعت بصرها إلى ڤيكي وقد لمعت عيناها البنيتان بالإثارة. ثم أضافت:

ـ بعد أن تزوجت ماما من جيرد، لم أعد أليسيا ڤالدز. أظن أن اسم كينغ يلائمني أكثر، أليس كذلك يا ڤيكي؟

ـ إنه اسم ممتاز ومحترم، يا أليسيا، إنها لنعمة كبرى أن تكوني من أفراد أسرة كينغ في كمبرلي، فهذه الأسرة مصدر فخر أبنائها.

فقالت الطفلة بتأثر:

ـ إنني أحب أن تكون لي أسرة. وقد أصبح لي الآن أب ككل رفاقي في المدرسة. وعندما يعود بي تومي وسام إلى «جنة كينغ» بعد العرس، وعدتني ميراندا بأن تدعني أساعدها في الاهتمام بطفلها.

أومأت ڤيكي مفكرة. ليس المال ما يمنح الحياة الغنى الحقيقي بل الناس، وتابعت أليسيا ثرثرتها:

ـ أرجو أن تنجب أمي وجيرد طفلاً، حتى يصبح لي أخ أو أخت، أتظنينهما سينجبان، يا ڤيكي؟

ـ في الوقت المناسب، يا صغيرة، علينا دوماً، أن ننتظر حدوث الأشياء في حينها.

* * *

قالت سام لميراندا وقد بدا الإرهاق على وجهها:

ـ فلنجلس، يا ميراندا. أنا بحاجة للجلوس.

ضحكت ميراندا وسارت معها إلى أقرب مائدة خالية. فبصفتهما

وصيفتي شرف لكريستابل، اضطرتا للوقوف لساعات طويلة خلال حفل الزفاف وأمام عدسات المصورين. كانت سام حاملاً في شهرها الرابع رغم أن هذا يكاد لا يبدو عليها، وهي ترتدي ثوباً من طراز «برنسيس» اختارته لهما كريستابل. أما ميراندا فلم تكن قد استعادت رشاقتها بعد إذ لم يمض على وضعها ماتيو سوى شهر واحد.

قالت سام وهي تغوص في مقعدها:

ـ أشكر الله لأنني لم أعد أشعر بغثيان الصباح، إن الحمل لا يناسبني مطلقاً. إنني أشعر بالتعب باستمرار.

فقالت ميراندا وهي تجلس على كرسي بجانبها:

ـ وهذا أيضاً سينتهي.

ـ أين طفلك الرائع؟ أريد من يذكرني بنهاية هذا العذاب.

ـ إنه مع أبيه يدور به على الضيوف ليروه.

ضحكت المرأتان، فناثان شغوف بابنه.

ـ تومي سيكون مثله، يكاد يطير من الفرح لأننا سننجب فتاة.

ـ حسناً، ستكون أول فتاة في أسرة كينغ منذ ثلاثة أجيال.

فكشرت سام:

ـ كنت دوماً أتمنى لو ولدت صبياً، لأنني لا أصلح لرعاية فتاة، يا ميراندا.

ـ كلام فارغ. سواء كان الطفل ذكراً أم أنثى، أظن أنه عليك فقط أن تدعيه يعيش حياته بشكل طبيعي، لقد أحسنت معاملة أليسيا وقلت إنها طفلة حلوة للغاية.

وحولت الاثنتان نظراتهما إلى ابنة كريستابل التي كانت تثرثر مع ڤيكي، وقد تألق وجهها فرحاً. كانت كتلة من الحيوية طوال النهار إذ أوكلت إليها مهمة حمل ثوب العروس.. وكم كانت فرحتها كبيرة لأن جيرد أصبح أباها. فقالت سام:

ـ الحق معك، فقد استمتعت جداً مع أليسيا.

ـ أرجو من الله ألا يرسل لنا مخبراً صحفياً لئيماً ليتحرى عن علاقتها بإرث كروجر. إنها طفلة طبيعية وحلوة للغاية.

ـ من حسن الحظ أن رافائيل أثبت هويتها باسم ڤالدز بشكل قانوني فقد سهّل الأمور أمامهم.

أومأت سام إلى حيث كان رافائيل وأليزابيت واقفين يستمتعان بحديثهما معاً بينما يتفرجان على العروسين، وقالت:

ـ وها هوذا هنا يدعي عدم اهتمامه بأليزابيت.

فردت ميراندا بجفاء:

ـ لا أظن ذلك. إن رافائيل يخطب ودّها بجد، يا سام.

ـ على ما يبدو، ما رأي ناثان؟

ـ يظن أن عليها التجاوب معه. وما رأي تومي؟

ـ إذا كان هذا يسعدها.. فلا بأس.

ـ أنظري إليها، إنها تتوهج تألقاً.

* * *

ـ الأبوّة تناسبك تماماً.

قال تومي ذلك وعيناه تتراقصان هزلاً لمنظر الطفل الغارق في حضن أبيه، بينما ضخامة جسم ناثان تجعله يبدو عملاقاً مقارنة مع ضآلة حجم طفله الرضيع. لكنه عملاق بالغ الرقة في معاملة ماتيو، وقد أثرت في تومي مشاعر الحب التي تفيض من أخيه الأكبر.

قال ناثان بابتسامة عريضة: ـ الأبوة رائعة، يا تومي. ولحسن حظك أنك ستنجب طفلة، هل اخترت اسماً لها؟

ـ وضعت اسم سارا على رأس القائمة.

ـ كانت سنة حافلة، أليس كذلك؟ ثلاثة أعراس. طفل لي، وطفلة لك في الطريق.

ـ بالإضافة إلى ابنة بالتبني لجيرد.

فضحك ناثان:

ـ لقد سمعتها ميراندا تتمرن على اسمها الجديد عندما كاننا تتأهبان للعرس. كانت تتلو اسم «أليسيا كينغ» أمام المرآة.

ـ ماذا سيحدث برأيك عندما تبلغ الثامنة عشرة.

ـ من الأفضل لها أن تتخلى عن الإرث حتى يهبه رافائيل للجمعيات الخيرية. لن تكون أليسيا بحاجة إليه ما دام جيرد أباها.

ـ كما أن كريستابل لا تريد شيئاً منه، وأظن أن تأثيرها سيزداد على مر السنوات.

ـ هذا مؤكد، فهي سيدة قوية جداً.

هز تومي رأسه وهو يفكر في سلسلة الأحداث الغريبة المؤلمة التي أوصلت كريستابل في النهاية إلى بروم.

ـ لقد مرت بأحداث جهنمية حقاً.

نظر ناثان إلى الضيوف المحتشدين حول أخيه الأصغر مع عروسه.. تلك المرأة التي كافح من أجلها وانتصر.

ثم قال بهدوء:

ـ لقد حصلت على جيرد الآن. أظنه سيعوّضها عن كل ما عانته في الماضي.

وغمز تومي بعينيه الزرقاوين مضيفاً:

ـ علينا أن نقول إن أخانا الأصغر كان الفارس على حصانه الأبيض الذي أنقذها بشهامته.

ـ آه، لا أدري، لا تنسى أن ما قمنا به نحو ميراندا كان بطولياً، إذ أنقذناها من «ملك الجرذان».

ـ هذا صحيح، وأنا مسرور لأن رافائيل سانتيسو لم يكن «ملك الجرذان» هو أيضاً، أظنه سيأخذ أمنا منا.

جال الاثنان ببصرهما على الحشد ليقيّما ما يحدث أمامهما.

ـ أتعلم، يا ناثان، يتمتع هذا الرجل بسيماء الفهد المنقضّ.

ـ نعم.. وأظنه يشبه والدنا من نواحٍ عدة.

* * *

عيل صبر رافائيل سانتيسو ووجد بأن الوقت قد حان لتتخذ اليزابيت قرارها.

قال وهو ينظر إليها بتحدٍ ساخر:

ـ أقمنا عرس تومي منذ أربعة أشهر، وقد وُلد ابن ناثان بسلام، وميراندا تقوم بدور الأم من دون أي صعوبة. كما أن الاستعداد لعرس جيرد بلغ غايته ونُفّذ على أحسن وجه، وأصبح ابنك الأصغر الآن متزوجاً. وطفل سام لن يولد قبل خمسة أشهر، وهي ليست مثل ميراندا. لأن سام لديها أم تعتني بها إلى حين موعد الولادة.

ورفع حاجبه:

ـ هل هناك أي سبب يمنعك من ترك كمبرلي والقدوم معي إلى اليونان؟

فبدت عليها الدهشة:

ـ ظننتك ستعود إلى أوروبا.

فهز كتفيه:

ـ أثينا في الطريق. وأنا وصي على جزيرة يونانية صغيرة، منعزلة، ورائعة الجمال. إنها أفضل مكان للإسترخاء بعد الأحداث التي شهدتها الشهور الستة الأخيرة.

ـ كانت شهوراً حافلة حقاً.

فقال متجهماً:

ـ وتبعث على الإحباط.

فغمزت بعينيها الرائعتين بإغراء:

www.elromancia.com

- لم يسبق أن ذهبت قط إلى جزيرة يونانية.

فأجاب وقد امتلأ قلبه بالرجاء:

- ليس عليك سوى أن توافقي.

* * *

رأت أليزابيت أنه أصبح بإمكانها، وبضمير مرتاح، أن تفكر بنفسها الآن. ولكن كيف ستكون علاقتها برافائيل؟ لم تكن تعلم أبداً. فهذه الحياة مختلفة عما اعتادته ولكنها أرادت أن تجربها.. أرادت أن تكتشف كنه المشاعر التي أثارها فيها، ولم يفت الأوان بعد على سلوك طريق جديدة.. لقد عاشت وحيدة مدة طويلة وآن الأوان لتعيش حياتها.

ابتسمت لرافائيل، وهي تفكر في مبلغ البهجة التي قد تشعر بها امرأة مع رجل مثل سانتيسو:

- لم يعد أحد بحاجة إليّ هنا. لذلك أوافق على الذهاب معك.

- حقاً؟

وارتسمت على وجهه اللاتيني الملامح ابتسامة الانتصار.

لن تخسر شيئاً ولكنها ستربح الكثير. كانت أليزابيت تردد ذلك في نفسها وهي تقول له بحزم:

- نعم، بكل تأكيد.

* * *

وضع جيرد ذراعه حول خصر كريستابل وهما يقفان عند السياج المحيط بأراضي الفندق، يتأملان طلوع البدر.. تلك الكرة الحمراء المتألقة التي ترتفع ببطء من وراء الأفق خلف خليج «روباك».

تمتم يقول:

- أسعيدة أنت؟

فابتسمت:

- إنك تعلم أنني كذلك، رغم إنني أتساءل عن شعور أمك بالنسبة

إلى إقامتنا في «بيكارد» وهو الذي كان منزلها لمدة طويلة.

- لقد قدمته لنا كهدية زواجنا. عند عودتنا من شهر العسل، تكون هي قد رحلت.

فقالت بدهشة:

- وإلى أين ستذهب؟

- مع رافائيل.

فبدا الاهتمام في عينيها:

- وهل حقاً ستترك كل أسرتها لتذهب معه؟ إنه يعيش حياة حافلة للغاية، يا جيرد.

فابتسم، وقد ازدادت ثقته في قدرة أمه على مواجهة التحديات مهما بلغت.

- ذلك ينعشها. كما تقول ڤيكي التي تتنبأ بأنه سيعاملها كملكة.

فتنهدت كريستابل:

- عليّ أن أعترف بأنه كان طيباً معي. ومحيّراً في مقدرته على مواجهة المشاكل مع أليسيا.

سألها بهدوء:

- هل ساءك التخلي عن أسرتك في البرازيل؟

فهزت رأسها:

- لا يهم أسرتي سوى المال. عندما ذهبت إليهم طلباً للمساعدة اعتبروني مجنونة لهربي، وكانت يد رافائيل الخفية تحثهم على الاستجابة لطلب المساعدة. لقد حدث الشيء نفسه عندما تقدم لورنس ليطلب يدي، فلم يفكروا سوى في أمواله.

ونظرت إليه بعينين لا ندم فيهما:

- حياتي هنا معك، وكذلك أليسيا، إنها تحب أسرتك يا جيرد. وكذلك أنا.

أومأ هو نحو الخليج وقال:

ـ ها قد بدأت.

* * *

حولت كريستابل انتباهها بسرعة إلى الحدث الفريد من نوعه في بروم، إنه أكثر الظواهر الطبيعية روعة في آذار وأيلول عندما ترتفع مياه البحر وتنخفض عشرة أمتار. وإذا كان الجو صحواً كما هو هذا المساء، تمتد بحيرات الماء بشكل متدرج عاكسة ضوء القمر، عارضةً سلماً وهمياً.. سلماً سحرياً يمتد فوق الأفق.

وأخذت تظهر الآن أوائل الأشرطة الحمراء في السماء، إنها ليلة لا تُنسى، بالنسبة إلى كريستابل، وذلك لأسباب مختلفة.. بدا لها وكأنها تتفرج على انعكاس ما فعله جيرد.. إذ أخرجها من الظلام ثم سدّد قدميها على الطريق معه.. هذا الطريق الذي كانت كل خطوة فيه تجربة سحرية، تتألق حباً لها.

تحول لون القمر، عندما ارتفع في السماء، إلى ذهبي براق، وقد شكّل سلماً من الدرجات الذهبية أخذت تقترب منهما أكثر وأكثر.. إنه السلم الذي سيوصلنا إلى مستقبلنا الذهبي. أراحت رأسها على كتف جيرد، وهي تدرك أنها لا تريد شيئاً آخر. حصلت على كل ما تريده مع هذا الرجل الذي يحتضنها.

همست:

ـ كم أحبك، يا جيرد. أشكرك لإنقاذي وقلب حياتنا كلنا رأساً على عقب.. أنا، وأنت، وأليسيا..

فقال مازحاً: ـ آه، كل ما كنت أفكر فيه هو سروري. على كل حال، إنني أحبك بكل سرور.

ابتسمت وقلبها يغني لفكرة ذهابها إلى السرير مع زوجها الليلة. زوجها الحقيقي بكل معنى الكلمة. كان السلم الصاعد إلى القمر رائعاً،

ولكن روعته لا تضاهي ذكرياتها مع جيرد.. فالتهب كيانها شوقاً إلى ما تتوقعه من الآتي.. وهل هناك أجمل من أن تكون عروس جيرد (ملك الأحاسيس)؟

* * *

www.elromancia.com